Abstract

The Qur'anic comma has received numerous studies comparing the comma and its sisters in the context of the one surah in terms of its coalition with what is indicated by the speech (meaning) this in terms of On the other hand, studying the phoneme format in terms of the audio signatures that are caused by these commas, according to the frequency of the letters and the morphological weights of the word, taking into consideration the shortness and length in the clues in which these commas are mentione.

And considering the frequency of the comma in the front of the verses as an export and rhythm as a rhythm for the occasion between the syllables of speech and a link to its chest at the end of it. To show the ritual occasions and the rhetorical secret behind the repetition of this comma, as it appears in the Wise Remembrance.

The study of the comma in this research is not to compare its suitability with its sisters in the context of the one surah, but it is a comprehensive study over a wider range of the study of the comma in one context. Is this comma in this position and not be others? The search is based on two parts: the first is the moral relevance, the second is the maqam, and it is like that if this comma is repeated in a fenced wall without changing it with a decrease or an increase, and from this standpoint the research attempted to trace this separator in its near position (the position of the surah) and in its distant position the position of the surah With her sister in which this agreed comma is mentioned, it is from a similar study that is often silenced by mentioning the wisdom of its repetition

مقدمة

حظيت الفاصلة القرآنية بدراسات عديدة تقارن بين الفاصلة وأخواتها في سياق السورة الواحدة من حيث ائتلافها مع ما يدل عليه الكلام (المعنى) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى دراسة النسق الصوتي من حيث التوقيعات الصوتية التي تحدثها هذه الفواصل على حسب تردد الحروف والأوزان الصرفية للكلمة مع اعتبار القصر والطول في القرائن التي وردت فيها هذه الفواصل، واعتبار تردد الفاصلة في صدر الأيات تصديرا وتوشيحا إيقاعا للمناسبة بين مقاطع الكلام وربطا لصدوره بأواخره، وقد وردت فاصلة "التفكر" في مواضع منجمة من سور القرآن الكريم يجمعها مقام داخلي ومناسبة تربط سوره كلها وأياته بعضها ببعض اقتضيا ختم الأيات بهذه الفاصلة، فعمل البحث على إظهار المناسبات المقامية والسر البلاغي الكامن وراء ترديد هذه الفاصلة على حسب ورودها في الذكر الحكيم.

إن دراسة الفاصلة في هذا البحث ليس لمقارنة تناسبها مع أخواتها في سياق السورة الواحدة ولكنها دراسة شاملة على مدى أرحب من دراسة الفاصلة في سياق واحد، فلو ترددت فاصلة بعينها في سورة واحدة لكن ذلك مدعاة إلى معرفة السر من ترديدها والداعي إليه، وما الذي أثار أن تكون هذه الفاصلة في هذا الموضع ولا يكون غيرها؟ ويكون البحث قائما على شقين أولهما: التناسب المعنوي ثانيهما: المقام، ويكون مثل ذلك إذا ترددت هذه الفاصلة في سور منجمة دون تغيير بنقص أو زيادة، ومن هذا المنطلق حاول البحث أن يتتبع هذه الفاصلة في مقامها القريب (مقام السورة) وفي مقامها البعيد مقام السورة مع أختها التي وردت فيها هذه الفاصلة المتفقة ، وهي من دراسة المتشابه الذي يُسكت في الغالب عن ذكر الحكمة من تكراره.

المنهج المتبع: استخدم البحث المنهج الوصفي الذي يتتبع الأيات التي وردت فيها هذه الفاصلة مع وصف وتحليل الأنماط التركيبية المختلفة على حسب المقام والسياق التي وردت فيه، وتقسيمها على حسب ذلك، مع محاولة إظهار السر البلاغي للختم بهذه الفاصلة.

وانطلاقا من كون الوقوف على إعجاز البيان القرآني هو الفَهم فقد اقتضى ذلك أن يكون لإعمال العقل والتأمل والتدبر نصيبا من هذه الدراسة، ثم الاطلاع على ما قاله المفسرون حول هذه الأيات في مصنفاتهم مثل: "نظم الدرر في تناسب الأيات والسور" و"التحرير والتنوير" و"البرهان في علوم القرآن"، ومحاولة تلمس الفروق بين المقامات التي انتهت بهذه الفاصلة المتفقة مع معاونة المنهج الاستقرائي الذي يتتبع الأيات في سورها المختلفة محاولا استنباط العلاقة التي تربط بين هذه الأيات في سياق السور التي ذيِّلت الأيات فيها بالفاصلة "يتفكرون، تتفكرون"، وسياق الأيات التي وردت فيها المفردة وعلاقتها بسباقها ولحاقها، وارتباط ذلك بالمعنى الأم في السورة الكريمة.

هدف البحث: الوقوف على السر البلاغي الداعي لترديد الفاصلة المتفقة المبنى "التفكر" في سياقات ومقامات مختلفة، ولِم كان التعبير

بها دون ما سواها من عمليات عقلية أخرى مثل: "يعقلون"، "يفقهون"، "يتذكرون"؟

الدراسات السابقة: لم أعثر على دراسة بلاغية متخصصة ـ في مظان البحث التي بحثت فيها – تخص فاصلة "التفكر" على مستوى المصحف كله في دراسة مستقلة بعينها، وإنما عثرت على دراسات جزئية في الحديث عن الفواصل عند الإمام الزركشي في برهانه تحت عنوان "علم المتشابه" "ما جاء على حرفين "لعلكم تتفكرون" (البقرة: ٢١٩) في القرآن،اثنان في البقرة")[1]، ولم يتعرض لذكر السر من ذكر هذه المتشابهات بل إنه قام بعمل إحصائي للمتشابهات ما جاء منها على حرف وحرفين..وهكذا ، إلى جانب تفسير العلماء لآي الذكر الحكيم والحديث عن هذه الفواصل في مواضعها من سورها حسب ورودها، كما وجدت بحث بعنوان "مصطلح "التفكر" كما جاء في القرآن الكريم دراسة موضوعية" للدكتور. محمد خازر المجالي، بحث بمجلة الشريعة والقانون، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العدد الثالث والعشرون– ربيع الأول ١٤٢٦هـ . مايو ٢٠٠٥م، عرض فيه الفرق بين التفكر وغيره من المصطلحات التي يظن ترادفها مع التفكر، ومقارنة بينه وبين المصطلحات القريبة، وطبيعة التفكير ومستوياته وخصائصه كما بينتها الدراسات الحديثة، وهو بحث لا تعلق له بالدراسات البلاغية.

أسئلة البحث وفرضياته:

س– ما وجه ختم الأيات بهذه الفاصلة مع استقلال السور وانفصالها عن بعض، وامتياز بعضها من بعض؟

س– هل الأمر بالتفكر انتهاض بالبصائر للنظر والاستقلال والترقي عن حضيض التقليد والاتباع؟

س– هل التفكير والنظر في ملكوت السماوات والأرض، ومطالعة النفس وما خلق فيها من عجائب وصول إلى الكمال الخاص الممكن لها الذي لا ينحصر درجاته في أشياء بعينها؟

س– هل أمر القرآن الكريم بالتفكر وسيلة وذريعة إلى الدعة وترك العمل؟ هل يتبع التفكر عمل؟

س– لماذا طولب الإنسان بالتفكر؟ هل هو لمحض التفكر والنظر والسؤال والجدل؟ هل إسناد فعل التفكر إلى الإنسان تشريف وتكريم له؟

س– ما نوع العنصر أو نوع الصور التي أُمرنا بالتفكر فيها؟ هل هي صور حسية أم عقلية أم مزيج بين الاثنين؟ وما المقدار الذي أمرنا باستنباطه بالعقل والتفكير خاصة وأن المأمور بالتفكر فيه محذوف؟

س– ما السر البلاغي في تكرار الفاصلة القرآنية في "تتفكرون" أو"يتفكرون" في مواضع بعينها من القرآن الكريم ؟ ولماذا دعى إلى التفكر دون النظر أو السمع أو التدبر في مقام هذه الأيات؟

١– البرهان في علوم القرآن. الزركشي، تح: أبي الفضل الدمياطي، ص ٨٧، دار الحديث. القاهرة١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م

خطة البحث: اقتضت الخطة توجيه ما تكرر من تذييل أيات الذكر الحكيم لفظا بالفاصلة "يتفكرون أو تتفكرون"، ولا شك أن لتذييل الأيات بهذه الفواصل سببا يقتضيه، وداعيا من المعنى يطلبه ويستدعيه، وأن لكل معنى من المعاني التي وردت فيه الفواصل تركيبا ومقاما هو أخص به فلا يليق بكل من تلك المواضع إلا الوارد فيه؛ ولذلك عمل البحث على محاولة الوقوف على الأيات التي اتحدت فواصلها واختلف سياقها لإبراز الداعي والمقتضي الذي دعى إلى الختم بهذه الفواصل المتوازية عائذة بالله من سوء الفهم، وسوء الوعي، والقول بالرأي خاصة أن القرآن الكريم بحر لجي أشعر بالعجز وأقف مكتوفة الأيدي عن خوض غماره خشية الخطأ والزلل، فجاء البحث في مقدمة وتمهيد وباب يتضمن محورين وخاتمة.

المحور الأول: السياق والمقتضي للتعبير بالتفكر ويتضمن أربعة مباحث:

المبحث الأول: خطاب التفكر في مقام السؤال.

المبحث الثاني: خطاب التفكر في مقام المحاجاة.

المبحث الثالث: خطاب التفكر في مقام ضرب الأمثال.

المبحث الرابع: خطاب التفكر في مقام الإنعام.

المحور الثاني: أسرار التنوع في فاصلة التفكر، ويتضمن مبحثا واحدا.

والله اسأل التوفيق والرشاد وحسبي أنني بشر والقرآن العظيم تنزيل من حكيم حميد، فماذا يفعل العاجز مع نص معجِز؟

تمهيد

لم يحظ فن بلاغي بجدل حول تطبيقه على القرآن الكريم مثلما حظي السجع، فتعددت أقوال العلماء ما بين مؤيد له ومعارض، فمن أيده احتج بأن أكثر أمثلة السجع من القرآن الكريم، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب الموسومة بالفصاحة والبلاغة واللسن، فلو لم يكن فيه سجع لم يدرك العرب سر فصاحته وإعجازه، وكذلك ورد في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم محمولا على الطبع غير متكلف)[١]، سهلا غير مستكره "إذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه")[٢] بشرط أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى، ومن عارضه فـ"لأن السجع يتبعه المعنى")[٣] دون النظر للمعنى في المقام الأول، وارتضوا أن يطلقوا على حروف المقاطع المتشاكلة فواصل لأنها "حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة.والأسجاع عيب")[٤]، وجُعل الفيصل في الحكم على السجع والفواصل هو: القصد إلى جلب السجع، والاهتمام بتزيين الألفاظ وجرسها وتتابعها؛ لبيان المقدرة اللغوية على التحسين والتلاعب

١- ينظر المثل السائر ٢١٣/١((١))

٢- كتاب الصناعتين. أبي هلال العسكري، ص ٢٦١، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، المكتبة العصرية.صيدا١٤٢٥هـ . ٢٠٠٤م.

٣- إعجاز القرآن. الباقلاني، تح: السيد صقر، ص٢٧٠، دار المعارف.د.ت.

٤- إعجاز القرآن ص٢٧٠

بالألفاظ، وكذلك قد يصرف السجع بتكرار أوزانه وانتظامها المتلقي عن الحقيقة لما فيه من الاعتناء بالبهرجة والزخرف اللفظي؛ فلذلك لم يحسن، إلى جانب نسبته للكهان والطير والقرآن الكريم منزه أن يتصف بما تتصف به الحوادث، كما أن للفواصل مزية على فواصل الشعر (القوافي) كونها أعم تقع على الحروف المتجانسة والمتقاربة، والسجع لا يقع إلا على الحروف المتجانسة فقط[١]، كما أن القوافي يقفوها الشاعر أي: يتبعها في شعره لا يخرج عنها ولو كان على حساب المعنى؛ لوجوب اعتماد حرف الروي حرفا واحدا حركته واحدة، فلا يجمع بين رفع وخفض وإلا عدّ قبيحا، وهذا الشرط لا يلتزم في الفواصل، وهناك شروط خاصة بالقوافي المقيدة لا توجد في الفواصل، ويمتنع استعمال القافية في كلام الله ﷻ لأنه لا يطلق عليه تسمية الشعر "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ " (يس:٦٩) "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ"(الحاقة:٤١)، فالشعر يسوغ فيه وقوع الكذب في الممكنات وهذا لا يجوز في القرآن الكريم "إذ المقصود بالشعر الاحتيال في تحريك النفس لمقتضى الكلام بإيقاعه منها بمحل القبول بما فيه من حسن المحاكاة والهيئة بل ومن الصدق والشهرة في كثير من المواضع"[٢].

والذي يطمئن إليه البحث أن السجع فن بلاغي كثير الدوران على ألسنة الفصحاء والبلغاء، موجود في كلام الله ﷻ وفي حديث رسوله صلى الله عليه وسلم، ولم ينكره على إطلاقه، وإنما أنكر سجع الكهان، فالعلة ليست في الاستعمال وإنما في التسمية، ولا التفات لما يقال: إن قبح السجع للقصد إلى إيراده؛ لأن الكلام المنثور ليس كله سجعا، وإذا كنا ننأى بالقرآن الكريم عن أن يسمى تسمية الشعر فالفنون البلاغية الأخرى وجدت في شعر العرب وكلامهم وأطلقت على القرآن الكريم ولم تتغير مسمياتها، و"كان الذي كره الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن مثل: حازي جهينة، ....كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ..... فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم فلما زالت العلة زال التحريم"[٣].

والفاصلة القرآنية محل البحث لا تبحث في زخارف القول وتنميقاته، ولا في القصد إلى إيرادها والتمكين لها بملاحظة أخواتها المجاورة لها في السورة، ولكنها تبحث عن ترديد الفاصلة المتفقة في أيات الذكر الحكيم، وترديد مثل هذه الفاصلة بعينها في مواضع منجمة من القرآن

١- ينظر – إعجاز القرآن ص ٢٧١

٢ – منهاج البلغاء وسراج الأدباء. حازم القرطاجني، تح: د.محمد الحبيب ابن الخوجة، ص٢٦٥، الدار العربية للكتاب تونس ٢٠٠٨م.

٣- البيان والتبيين. الجاحظ. تح: عبد السلام هارون، ٢٠٦/١، ط١، مكتبة ابن سينا . القاهرة ٢٠١٠م.

العظيم وجه من وجوه إعجازه ، فلا تستطيع القدرة الشعرية البشرية أن تردد فواصل متماثلة في مقامات مختلفة ويكون لها من الحسن والتمكن ما لفاصلة التفكر في هذا الموضع، قال تعالى : "فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ" (الطور: ٣٤) فالمماثلة والتكرار هنا إعجاز، وكذلك ترديد الفاصلة المتفقة الوزن هنا إعجاز أيضا، وقد جعل المفكر "الرافعي" التكرار مظهرا من إعجاز القرآن الكريم يقول: "وفي القرآن مظهر غريب لإعجازه المستمر....ذلك هو وجهُ تركيبه، أو هو أسلوبه، فإنه مباين بنفسه لكل ما عُرف من أساليب البلغاء في ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم، وعلى أنه يؤاتي بعضه بعضاً، وتُناسب كل أية منه كل أية أخرى في النظم والطريقة، على اختلاف المعاني وتباين الأغراض، سواء في ذلك ما كان مبتدأ به من معانيه وأخباره وما كان متكرراً فيه"[١] .

الأيات التي ختمت بفاصلة "التفكر"

قال تعالى:

١- "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ " (البقرة: ٢١٩)

٢- "أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ " (البقرة: ٢٦٦)

٣- " قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ " (الأنعام: ٥٠)

٤- "وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (الأعراف: ١٧٦)

٥- "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (يونس: ٢٤)

٦- "وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (الرعد:١٣)

٧- "يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (النحل:١١)

١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. مصطفى صادق الرافعي، ص٢٠١ ، ط٩، دار الكتاب العربي.لبنان١٣٩٣هـ . ١٩٧٣م.

٨- " بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " (النحل: ٤٤)

٩- "ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل: ٦٩)

١٠- "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(الروم: ٢١)

١١- " اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (الزمر:٤٢)

١٢- "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (الجاثية :١٣)

١٣- " لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "(الحشر:٢١)

المبحث الأول

مقام السؤال

قال تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ- فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"[(١)] (البقرة:٢١٩ :٢٢٠)

السياق المقامي للأية الكريمة:

افتتحت الأية الكريمة بـ"يسئلونك" وقد تكررت صيغة السؤال في سورة البقرة قبل هذه الأية ست مرات في قوله تعالى:"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ" (البقرة: ١٨٦)، و"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ "(البقرة:١٨٩)، و"سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ" (البقرة:٢١١)، و"يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ" (البقرة: ٢١٥)، و"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ

(١)- سبب نزول أية البقرة ٢١٩ نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: "أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للمال" أسباب النزول. النيسابوري، تح: عصام بن عبد المحسن، ط٢، ١٤١٢هـ . ١٩٩٢م دار الإصلاح.الدمام.

فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ" (البقرة:٢١٧)، و"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة:٢٢٢).

ورد السؤال أية ٢١٥ عن الإنفاق، وتكرر نفس السؤال أية ٢١٩ مع اختلاف السياق والمقام الذي ورد كل سؤال فيه، وتكرار هذا السؤال هنا اتباع طريقة بني إسرائيل في تكرار الأسئلة والتعنت؛ ولذلك لمزهم الله . عز وجل . في قوله: "أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (البقرة: ١٠٨)؛ ووضح أن أعمال البر منفعة لهم "وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ" (البقرة:١١٠)، وفرّق بين ما كان من سؤال وُجه للنبي . صلى الله عليه وسلم . "سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...." وما كان من سؤال المؤمنين للنبي . صلى الله عليه وسلم . "يسألونك"، فاستفسار الصحابة وسؤالهم تصدرت الإجابة بأسلوب الأمر "قل" لبيان أن الإجابة مُوحٍ بها من عند الله والرسول . صلى الله عليه وسلم . مبلغ "إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيّ" وهذا على عكس قوله تعالى:"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي" فلم يتصدر الجواب بـ"قل" ولم يجعل المسند إليه "عبادي" ضميرا كما في "يسألونك"؛ لأن المقام هنا مقام قرب وتلطف وطاعة، وقد وردت الأية في سياق الصوم، فالخطاب للمؤمنين الذين امتثلوا وقاتلوا وصاموا؛ ولذلك أضيف المسند إليه "عباد" لياء المتكلم للتشريف، كما أن جواب الشرط جملة اسمية "فإني قريب"لتحقق ثبات ودوام قرب الله ﷻ من عباده المؤمنين متى أقبلوا واستجابوا وءامنوا، وكون المسند إليه ضميرا مفردا "إني" مشعرا بزيادة القرب ومحو الحوائل والحواجز، كما كان لتقديم المسندإليه "عبادي" على حرف الجر "عني"على خلاف "يسئلونك عن..." إشعار بتعظيم المسند إليه والعناية بهم وتقديم ذكرهم لتقديمهم عبادة الله وتشوقهم إلى معرفته، ولم يتصدر الجواب بـ"قل"؛ لأن الحواجز بين الله والعبد زائلة متى سجد العبد واقترب.

أما قوله: "يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم..." فقد سأل الصحابة عن ماهية ما ينفقون ونوعه فأجيبوا ببيان المصرف على طريقة أسلوب الحكيم تنبيها على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك؛ لبيان أنه هو الأولى بالاعتبار والسؤال ليقع الإنفاق موقعه ويصل لمستحقه وتكرر نفس السؤال "ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو" فكانت الإجابة هنا على قدر السؤال مناسبة لوقوعه في صحبة السؤال عن الخمر والميسر، ولما كان الخمر والميسر فيهما إثم كبير بإتلاف المال الذي جعل قياما للناس ثنّى بالسؤال عن وجوه الإنفاق، فكأن الله عز وجل أراد صرفهم عن إتلاف المال في الخمر والميسر فوجههم إلى صرف الزيادة والعفو في الصدقات، والجمع بين الخمر والميسر من مراعاة النظير لأنهما متلازمان عادة، فالخمر يصحب جلسات الميسر، ولا

سيما إذا كانت الخسارة فادحة فالخمر يكون أداة مسكنة للتمادي في الفعل ونسيان الخسارة.

وهنا يطرأ على الذهن سؤال، لماذا يسأل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر؟ والسؤال: استخبار على وجه التبيين والتعلُّم مما تمسّ الحاجة إليه، فقد كانت الخمر حلالا يشربها الصحابة رضوان الله عليهم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: " كنت أسقي أبا عبيدة وأبا طلحة وأُبِّي بن كعب من فضيخ زهو وتمر فجاءهم آت فقال: إن الخمر قد حرمت فقال أبو طلحة: قم يا أنس فأهرقها فهرقتها"[١]، فجاء الجواب "قل فيهما.." ملائما لما يقتضيه المقام، وهو عدم التحريم فأبان الله . عز وجل . أن ما سبق من شربهم تجاوز عنه الله . عز وجل . بمغفرته ورحمته إلى أن حُرِّمت نهائيا في سورة المائدة ففي هذا الانتقال تدرج وموعظة.

وإذا كانت الخمر حلالا يشربها الصحابة فلماذا جاء السؤال عنها في هذه الأية؟ فالسؤال قد يكون عن جهل بما يسأل عنه أو علم به[٢]؛ ولذلك فسرها "الدامغاني" "السؤال يعني:الاستفتاء؛ قوله تعالى: في سورة البقرة "يسئلونك، يعني: يستفتونك ويستخبرونك...وكل موضع (يسئلونك) فعلى هذا المعنى"[٣]، فالخطاب تشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم يستفتونه عن حكمها لوجود من يشربها والبعض الآخر يترفع عن شربها حتى قبل أن يسلم، والفعل "سأل" فعل متعد إلى مفعولين، والسؤال يتجاوز الفاعل إلى محل غيره وهو المفعول به، فالسؤال يقتضي مسؤولا عنه إلا أنه يتعدى إلى الأول بنفسه من غير واسطة، وقد يتعدى السؤال إلى المفعول الثاني بنفسه دون حرف الجر كقوله: "يسئلونك ماذا ينفقون" لأنه طلب بذل، أو بواسطة حرف الجر، ثم اتسع فيه فحذف حرف الجر[٤]، فإذا كان السؤال بمعنى الاستخبار، والخبر يقتضي (عن) في المعنى، فالفعل فيه لا يتعدى إلا بحرف الجر[٥]، وفي بدء الآية بـ"يسئلونك" إشارة إلى أن البيان للصحابة لأنهم هم الطالبون والبادئون بالسؤال، وفيه إشارة أيضا إلى أن الصحابة كانوا يرجعون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم أمره، ولم يمنعهم ذلك أن يسألونه عن الملذات والملهيات، وكانوا حريصين على أن يبين لهم في ذلك جوابا

---

١ – صحيح البخاري. كتاب الأشربة. باب نزل تحريم الخمر وهي من البسر والتمر . حديث رقم ٥٥٨٢، ص٩٨٣، دار أخبار اليوم،قطاع الثقافة.د.ت

٢ . الفروق اللغوية.أبو هلال العسكري، ص٢٢ . المكتبة التوفيقية.د.ت.

(٣) – الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز. عبدالله الحسين بن محمد الدامغاني، تح: محمد حسن أبو العزم، ١ /٤٣١ ،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤٣١هـ . ٢٠١٠م.

٤ – شرح المفصل. الزمخشري، تقديم: د.إميل بديع يعقوب ، ٤ / ٢٩٧ ، ط١، دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١م.

٥– ينظر شرح المفصل ٣٠٢/٤

شافيا، وكانت الإجابة بـ"قل" في الأمرين جميعا لا فرق بين ما يضر المجتمع وما يضر الفرد دون غيره.

والعطف بين الجملتين "يسألونك... ويسألونك" للتشريك بين الجملتين في حكم الإعراب مع وجود الجامع، فالخمر والميسر إنفاق المال في غير وجهه، وقد يكون هذا المال زائدا عن الحاجة ولذلك جاءت الإجابة عن سؤال الإنفاق في هذا المقام "قل العفو" أي: ما زاد عن الحاجة فلهذا حسن الوصل، وقد تكررت صيغة السؤال "يسئلونك عن" في السؤال عن الأهلة والخمر والميسر واليتامى لأنها أعيان محددة ومعلومة فيسأل عن أحوالها، وعند السؤال عن الإنفاق "يسئلونك ماذا ينفقون" فالإنفاق من أجناس مختلفة أعيان وأملاك وأموال؛ فلذلك كان السؤال عن أعيانها[(١)] .

وتقدم المسند (فيهما) على المسند إليه (إثم كبير ومنافع) لتأكيد وتحقيق شدة تعلق الإثم والمنفعة بهما، ثم احترس بقوله تعالى: "وإثمهما أكبر من نفعهما" لدفع توهم أن يكون الإثم لا يقدح في حليّة الخمر والميسر وكونهما مباحين على الجملة، وأن الإثم هنا لا يعتدّ به للتعليل والركون إلى كونهما منافع للناس، ووصف المسند إليه بـ"كبير" أو "كثير" على قراءة من قرأ كثير[(٢)]، والكبير والكثير استعارتان للقوة والعظم؛ ولذلك ترقى في تغليظ مقدار الإثم فوصف بأفعل التفضيل (أكبر)، لتغليب الإثم وترجيحه على جانب النفع، ثم عطف على هذا السؤال سؤالا آخر "ويسألونك ماذا ينفقون.." لأن الخمر والميسر إهدار للمال في غير وجهه، وقد يمكن أن يستغنى عنهما فإنفاقها في مصارفها أولى، فللحديث عن الإنفاق نصيب وافر في سورة البقرة ابتدأت السورة الزهراوية بمدح المنفقين بالهدى والفلاح "وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون" (البقرة:٣) وقوله: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ" (البقرة: ١١٠) ومهد للحديث عن الإنفاق بقوله تعالى: "وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا" (البقرة: ١٩٥) حث وأمر على الإنفاق في سبيل الله وتجهيز

---

١. ينظر التحرير والتنوير، ابن عاشور ،٢٣٥/١ مكتبة مصر، دار سحنون للنشر والتوزيع تونس.د.ت.

((٢))– "اختلفوا في "إثم كبير" فقرأ حمزة والكسائي بالثاء المثلثة وقرأ الباقون بالباء الموحدة واختلفوا في "قل العفو" فقرأ أبو عمرو بالرفع وقرأ الباقون بالنصب" قراءة الرفع وذلك على تقدير "هو العفو" وقراءة النصب أرجح لأنها تقدر عاملا "أنفقوا" فعلا والفعل يدل على تجدد وحدوث، فالإنفاق هنا قد يكون عفوا وقد يكون من غير العفو؛ كما فعل كبار الصحابة رضوان الله عليهم حينما تصدق سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بماله كله، ولكن على قراءة الرفع فالمنفق هو الفضل والجملة الاسمية دالة على الثبات والدوام فيفهم منه أن المنفق العفو دائما. النشر في القراءات العشر. محمد بن محمد الدمشقي (ابن الجزري) تح: علي محمد الضباع، ٢/ ٢٢٧ .دار الكتب العلمية.

الجيوش ثم السؤال عن النفقات ومصارفها ، ثم الحديث عن نفقات النساء وحقوقهن المادية في الطلاق، ثم الأمر بالإنفاق "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (البقرة: ٢٥٤)، ثم اختتمت السورة الكريمة بالحديث أيضا عن المعاملات المادية والصدقة والإنفاق، وبيان أثر الصدقات والنفقات وثوابهما، وأثر الرياء والمن والأذى بالصدقة حديثا طويلا، وضرب الأمثال ترغيبا وترهيبا، وذكر المعاملات المادية الممقوتة فتحدث عن الربا وعلاجه، ثم انتقل للحديث عن الزكاة مرة أخرى، ثم المداينة، ثم الرهن، فيكون الحديث عن الإنفاق في أول السورة ووسطها وآخرها ردا لأول السورة على عجزها، وربط وترابط لأجزائها.

أفرد الضمير في اسم الإشارة "كذلك" لأن الإجابة والبيان من عند الله وحده، والإشارة بالبُعد إلى البيان الحاضر المتقدم ذكره للتعظيم وكون الإجابة عليّة وجديرة بالتفكر، وتنزيل الإشارة العقلية منزلة الحسية لغفلة معظم الناس عن إدراك الحكمة والمغزى، فلا يدركون غير المحسوس بدليل تكرر السؤال عن الإنفاق، فكون الخمر والميسر إثم كبير وإثمهما أكبر من نفعهما حقيقان بالتفكر؛ لأن هذا المعنى لا يدرك بالحس بل يدرك بالفكر فهو في حكم البعيد، كما أن في اسم الإشارة تحديدا للحكم تحديدا ظاهرا وتمييزه تمييزا كاشفا وهو مناسب لتبيين حكم الخمر والميسر والإنفاق.

وعبر بالبيان "يبين" دون "يفصل"؛ لأن البيان كشف وظهور وانفصال وشرح للمجمل والمبهم[١]، فالخمر والميسر حكمهما غير واضح في العقول فالبعض يزاولهما والبعض يأنف بفطرته السليمة من مزاولتهما؛ ولذلك طلبوا البيان لأمرهما، وهما من العادات المتأصلة في العرب ولا يستغنون عنها؛ فلذلك تدرج البيان القرآني في تحريمهما، ثم كان التحريم القاطع في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (المائدة: ٩٠)، وكذلك تقدم السؤال عن ماهية الإنفاق فأجيب بـ"قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ"، ثم ثنّى ببيان مصارف النفقات " فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ..." ، فكأن السائلين لم يتثبتوا ويتبينوا مقدار المنفَق فبيّن المولى . عزوجل . أنه (قُلِ الْعَفْوَ) أي: ما زاد وفضل، فالبيان هنا؛ لأن المقام لم يقطع في حكم الخمر والميسر حكما نهائيا، ولأن السائلين كذلك أعادوا السؤال عن جنس المنفَق، وكأن السائلين التبس عليهم حينما علموا أن الميسر إثم كبير وهم ينفقون منه على ذوي الحاجات والمعوزين، فوضح لهم أن الإنفاق من العفو فلا ترتكب معصية بالميسر لنفع المحاويج، وهذان أمران يقتضيان التأمل والتفكر والنظر بالقلب والإقبال بالفكر نحو المسئول عنه المؤَّمل به حصول علم في أمور الدنيا والآخرة.

---

١. ينظر لسان العرب مادة (بين) ، والمفردات للراغب الأصفهاني ص١٥٨، ١٦٥

وأفرد الخطاب في "كذلك" لأن البيان مفرد، ثم جمعه "لكم" للعموم؛ لأن الخطاب للسائلين ولمن سيأتي بعدهم "أشار إلى علوّ الخطاب بالإفراد وإلى عمومه بالجمع"[(1)] وجمعت الأيات "لأنها أيات من جهات مختلفة لما يرجع لأمر القلب وللنفس وللجسم ولحال المرء مع غيره"[(2)]، ولا مانع من أن يراد بالخطاب الجمعي (لكم) العموم مع دخول الرسول . صلى الله عليه وسلم . معهم لأنه لو كان لديه علم بالحكم ما سأل ولأجاب دون سؤال، فهو لا يدلي بحكم من نفسه "وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ" (العنكبوت: ٤٨) "إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ" (النجم:٤) فلذلك ورد البيان للعموم داخلا فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، أما التفكر فلعموم السائلين ومَن يأتي بعدهم دونه .

وأبان بالرجاء "لعل": والرجاء: أمل وطمع وتوقع وظن يقتضي حصول ما فيه مسرة وهذا يستحيل على الله تعالى، والرجاء خبر ولكن معناه: الإنشاء أي: تفكروا؛ لأن التفكر فرض على كل عاقل لوجود الأيات والدلائل ووضوح السبل وبيانها.

والفاصلة "تتفكرون" ممّكنة في موضعها، غير نافذة ولا قلقة متعلق معناها بمعنى ما قبلها، فقد سألوا عن الخمر والميسر وبين الله الحكم فيهما وشفعه بعلة تبين سبب الإقلاع عنهما والتحريم لهما، ثم سألوا عن الإنفاق فأجيبوا بما يريح أنفسهم ويأهبها للإنفاق سمحا وطاعة فكان هذا الجواب مدعاة للتفكر وحث عليه، وقوله: "لعلكم تتفكرون" إيغال أي: لتكونوا على حال يرجى لكم معها التفكر فتتفكرون في العواقب، فالإنسان يرضى ويطمئن لما يعلمه بعقله ويسكن إليه روحه ويُرضي ضميره، والدليل على ذلك دعوة البيان القرآني إلى اعتبار الموجودات بالعقل، ومعرفتها به والآيات والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، فاعتبروا بعقولكم وتفكروا حال المخمور بعد أن يفيق من سكره ونشوته ويجد أنه خسر دنياه وآخرته، وذهبت مروءته وهذه حال تستدعي الإنسان أن يتفكر بعقله قبل أن يقدم على فعلها والانغماس فيها من جهتين الشرع وهو الحرمة، والعقل وهو تلف الصحة والمال، وهذا النظر والتفكر يؤدي إلى معرفة الله تعالى حق المعرفة؛ لأن التفكر مقصود به دعوة جميع أصناف الناس للتفكر، فالشرع مقصوده تعليم الجميع، والعناية بالأكثر من غير إغفال "تنبيه الخواص، كانت أكثر الطرق المصرح بها في الشريعة هي الطرق المشتركة للأكثر"[(3)]، والجمهور الغالب لا يوجد أحد سليم العقل يعرى عن هذه الدعوة إلى التفكر، وهو بهذا يدعوهم إلى الارتفاع عن حضيض التقليد واتباع أفعال

---

١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. برهان الدين البقاعي، ٣/ ٢٦٣ ، دار الكتاب الإسلامي.د.ت.

٢. نظم الدرر ٣/ ٢٦٣

٣ – فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال.ابن رشد، تح:د.محمد عمارة، ص٥٦، ط٣، دار المعارف.د.ت.

السابقين دون نظر وتفكر، فبين الله الطريق وأمر بالنظر فيه ولم يلزمهم بأمر قطعي بل تركهم للنظر والرغبة في معرفة الحق، وتلك مزية العقل التي نوّه عليها القرآن الكريم وعوّل عليه في أمور العقيدة والتكليف، وقد خاطب الله هنا العقل المفكر لأنه "يتولى الموازنة والحكم على المعاني والأشياء"[١].

والدعوة من الله . عز وجل إلى التفكر لحث الملكة المعطلة عند بعض بني ءادم من ملكات العقل البشري وهي التأمل فيما نهي عنه وما أمر به وتقليبه على وجوهه واستخراج واستنباط نتائج وأحكام ليصل إلى حكم الحل والحرمة "وهذا ما يكوّن لديه ملكة "الحكمة" التي تزع الفرد عن ما يقبح وتدفعه إلى ما يحسن فيكون العقل وازعا"[٢].

الأية الثانية: قال تعالى: "أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" (البقرة: ٢٦٦)

المقام السياقي للأية:

أفاضت الأيتان ٢٦١ و٢٦٢ في بيان أجر المنفق في سبيل الله دون إتباع الإنفاق بالمن والأذى، ثم قدم البيان القرآني حلا للمنفق المانّ بصدقته بأن الله جلّ جلاله مستغنٍ عن صدقته، ولا حاجة للفقير بعطاء يتبعه ألم نفسي عميق وكسر لخاطره، ثم اتجه البيان للمنفِق يبين له أثر النفقة على نفسه، فهو أحوج للصدقة والإنفاق من المُنفَق عليه، ثم ذيل المثال الحسي الذي ضربه للمنفق المخلص والمنفق المرائي بصورة ممثلة مهولة تهوّل من يتمثلها، وتفزع من يراها حاثا ومنبها عموم من يتأتى منه الخطاب على التدبر والتأمل والاعتبار والتفكر في هذه الصورة، فالاستفهام في الأية يلفت الأذهان أن ما استفهم عنه جدير بالاهتمام.

ابتدأت أية ٢١٩بالسؤال بصيغة الاستخبار والاستفتاء (يسألونك)، ولم تبدأ بأداة استفهام كما ابتدأت هذه الأية، ففي المقام الأول لم تتضح الأمور ولذلك يسألون، أما المقام الثاني فالأمور واضحة ولكن المخاطبين غفلة، فالمقصود بالاستفهام عظيم، وهو وزجر ومنبهة وتحفيز للنفوس لتُقبل وتفهم، والصورة هنا لمثل يُضرَب لا حادث يقع، فضرب المثل لعمل غني أُعطي الأموال وأنفق في وجوه البر والصدقات ثم أغواه الشيطان فعمل بالمعاصي، فلا مال نافع باق ولا ثواب صدقة موجود، ولا ذرية قوية تنفع ولا عمر يبقى، فيمتلأ قلب السامع بالخشية والرهبة لهول ما هو متخيل من صورة الإعصار الذي ابتلع الجنة بثمرها ونخيلها وأنهارها، وتعددت الجمل التي تصور حال المشبه به (ثمان جمل)، وهذا الطول يفصح وينبئ عن مدّ الله لهم أعمارهم وأموالهم مدا مع وجود بعض المنغصات التي اكتسبتها أيديهم، فالمثل هنا مقصود منه الترغيب والترهيب، بتصوير مشهد

---

١. ينظر التفكير فريضة إسلامية. عباس العقاد،ص١٠ ، مكتبة الأسرة ١٩٩٨ م.

٢. ينظر التفكير فريضة ص١٠

حي حركي للجنة أشرك فيه الحس والخيال والفكر والوجدان على طريقة المذهب الكلامي، وأبرز المعنى المعقول في صورة حسية، ثم رتب على ذلك نتيجة ممثلة أيضا في مثل كبرهان ودليل على سوء المراءاة والمباهاة بالنفقات وذهاب أثرها وعدم بقائه.

قوله:"أيود أحدكم" أخرج البيان مخرج الاستفهام . ليتنبه السامع لأنه همّ بفعل ما لا يستصوب . في صورة حجة منطقية تدعو إلى التفكر، بأسلوب ليس إنكاريا كما أفادت التفاسير بأن الاستفهام للإنكار[١]، ولكن الاستفهام ترغيب وإقبال على المخاطب بالتودد إليه والتلطف معه؛ ولذلك عبر البيان بـ"الود" وهو الحب في جميع مداخل الخير، فلفظ "الود" يصور الأثر المحبوب الذي تريده النفس وتقبل عليه وهي صورة الجنة التي تجري من تحتها الأنهار التي هي سبب دوام الحياة لهذه الجنة فيطمع الإنسان ويغتر بالبقاء ويتجبر.

وخص النخيل والأعناب بالذكر؛ لأنهما من الفواكه عظيمة النفع قيمة، ويمكن الاحتفاظ بهما لمدة طويلة تصل إلى عام، فنظر في هذا إلى دوام الأثر والمنفعة، فالبيان القرآني العظيم يجذب النفس البشرية الإنسانية ويقبل عليها ويبسطها ويؤنسها بالخيرات الدائمة التواجد والنفع، ويُغري بما فيه البقاء "تجري من تحتها الأنهار" فالثمر ءات أكله ، وسبب البقاء موجود ولذلك عبر بالجمع "الأنهار" وأفرد "الجنة" مناسبة لإفرادها في "كمثل جنة بربوة"، وأردف بذكر "له فيها من كل الثمرات" فخصوبة الجنة وصلاحها لم يقتصر على نخيل وأعناب بل التفكه والتلذذ والانتفاع حاصل بتواجد وحصد جميع الثمرات، فتستغرق النفس في النعيم وتأنس وتبتهج، ثم تأتي "واو" الحال "وأصابه الكبر" لتضم هذه الحال الواقعية المؤلمة المنذرة بقرب الأجل ودنوه إلى حال النعيم والهناءة والسرور والاغتباط بما هو كائن، فإذا نذير الأجل يؤذن بالفوت والرحيل، والتعبير بـ"أصابه الكبر" استعارة لبلوغ الكبر، فكأن الكبر مكروه نزل بالإنسان، ولم يكن التعبير: مسّه أو بلغه؛ لأن الكبر قصده وأخذ من صحته وعمره، وهذا نذير بقرب الأجل، ويزيد الأمر سوءا مع هذا الضعف البشري كونه "له ذرية ضعفاء" لتراكب أحوال الضعف بعضها مع بعض، كبر في العمر مع احتياج ووجود ذرية ضعفاء صغار معوزين، وتقدم المسند (له) على المسند إليه (ذرية ضعفاء) لإبراز الهموم المتضاعفة والمسؤوليات التي أثقلت كاهل هذا المُسنّ أي: هؤلاء الذرية مسؤوليته هو ولا عائل لهم سواه، وبين الكبر" و"ذرية ضعفاء" طباق خفي، فالكبر لا يضاد الضعف ولكنه لازم عن الصغر المقابل للكبر، فلما تمادت النفس في النعيم

---

[١] ينظر الكشاف.الزمخشري، تح:خليل مأمون شيحا، ص١٥١، ط٣، دار المعرفة. بيروت ١٤٣٠هـ . ٢٠٠٩م، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوي. ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر الشيرازي البيضاوي، تح: محمد صبحي ود.محمود الأطرش،١/ ٢٢٥، ط١، دار الرشد دمشق بيروت ودار الإيمان بيروت١٤٢١هـ . ٢٠٠٠م، والتحرير والتنوير ٣/٥٤.

وانغمست في الشهوات نبهها من سبات الغفلة والتمادي بقوله: "فأصابها إعصار..." أي شيء غير متوقع دون سابق إنذار أو مقدمات كالآفات التي تصيب الأرض الزراعية تُرى بالعين وتعطي مقدمات للإهلاك "من الاحتراق وهو ذهاب روح الشيء وصورته ذهابا وحيا بإصابة قاصف لطيف يشيع في كليته فيذهبه ويفنيه"[١]، وهذا التفسير مناسب لروح الأية ويشاكل لفظ الود في أولها، والنداء بالبُعد والتكريم بعده "يا أيها الذين ءامنوا..."(البقرة:٢٦٧)، والتوجه إليه بالنصح والإرشاد والإغراء والترغيب والتحذير الأيات (٢٦٧ :٢٧٤)، فالذرية الضعفاء مثل للعمل السيء والإعصار فيه نار مثل للمن والأذى والأعمال السيئة؛ لأن آثارهم السيئة تحرق قلب المتصدَق عليه كما أنه يحرق أثر الصدقة ويمحو منفعتها فلا أثر لها ولا تدفع عذابا، فهذا المثل المضروب يحتاج إعمال فكر ونظر، ولما كان الرياء معنى خفيا كانت صناعة التمثيل هنا وفائدته إفهاما لأمر خفي بما هو أعرف عند المخاطب عامة "ليقيس مجهوله إلى ما هو معلوم عنده، فيستقر المجهول في نفسه"[٢]، وضرب المثل هنا بما هو عام معلوم عند المخاطب روعي في التمثيل به خطاب جميع البشر على لسان رسول أرسل كافة للعالمين.

قوله: "لعلكم" هنا للتحضيض مع ضرب من اللوم والتوبيخ على ما كان يجب أن يفعله المخاطب قبل أن يطلب منه[٣]، وصيغة الترجي فيها اختيار دون قسر وإلزام، كما ترجمت حال المرتجي بين أن يفعل وألا يفعل، فالمولى عز وجل يلوم ويعرِّض بمن يستمع الخطاب أن يعفي نفسه من مؤنة العقل وتقليد من لا عقل له.

وهو خطاب منبهة للعقول وإيقاظ لها حتى يكون التفكر والتدبر والتعقل طريقا ومنهجا في الحياة نستنبط من خلاله الحكمة في الفعل والترك، ولم يكن البيان الإلهي بالأسلوب الإنشائي "تفكروا" فالأمر في هذا المقام لا يناسب الإنعام الذي ورد في صدر الآية من التودد إليهم بالنعم بالجنة والثمار والأنهار، ولكن صيغة الرجاء هنا ترغيب وتهذيب وتبكيت أيضا للنفس البشرية وحملها على التفكر في حالها، وإثبات لنقصها وضعفها، فإذا كانت على هذه الحال فالأولى بها أن تضع النتائج والعواقب أمام عينها بإعمال القدرة المعطلة وهي التفكر والنظر والتدبر في المقدمات وما يستتبعها من نتائج.

والتعبير بالمضارع "تتفكرون" لأن الإنسان متقلب الأحوال والأمزجة بحسب ظروفه، فالتفكر لا يحدث منه في كل الأوقات بدرجة واحدة، ويتسع ويعمق كلما تقدم في العمر وازداد معرفة بموجد الأشياء ومكوّنها وبحسب ما اكتسبه من علوم ومعارف وما

---

١. نظم الدرر ٨٧/٤
٢. معيار العلم. الغزالي، تح:د.سليمان دنيا، ص٥٩ ، ط٣، دار المعارف ٢٠١٨م.
٣. ينظر المطول.سعد الدين التفتازاني، ص ٢٢٥، المكتبة الأزهرية للتراث.د.ت.

يستجد منها؛ لذلك فالتفكر يحدث شيئا فشيئا ليفتح الباب على مصراعيه للنظر والتفكر والتدبر والتأمل والبحث والمكاشفة، فالباب مفتوح والعاقل مَنْ يستنبط ويكتشف.

كما أن صيغة المضارع جدد الفكر وزاولته مزاولة متكررة، فالفكر يصحح الفكر وينمي اليقين ويكشف الأخطاء، وقد كبح جماح العقل من الشرود وحدد له مجالاته بسبق عمل الفكر بضرب أمثلة حسية موجودة يعمل الفكر في إطارها وينتقل من المدى المحسوس المشاهد إلى آفاق عليا تخاطب الوجدان والشعور وتنحو بالعقل من الغفلة إلى التذكر والتدبر والتأمل ثم العلم واليقين.

ولم يخص الخطاب هنا طبقة معلومة معينة هم أولي النظر والتفكر، بل يتفكر كل عاقل مكلف يتأتى منه التكليف بالتفكر، والفكر بالعقل، فلم يخاطب إلا من صح عقله، واعتدل تمييزه، ولا جعل الثواب والعقاب إلا لهم، والعقل حجة الله سبحانه على خلقه، والدليل لهم إلى معرفته، وشحذ العقل يكون بالأدب والتفكر والتمييز والتدبر، والفكر المأمور به فكر منظبط؛ لأنه فكر في آثار الموجودات المعاينة، فالحكم على الشيء الموجود هنا بالتفكر في آثاره بالعقل المفكر، وليس بالخيال المموّه المضلل؛ ولذلك لم نؤمر بالتخيل "تتخيلون" ولكن الفكر يقود إلى الهداية والنور، فالتفكر هنا تفكر عبادة، ونظر عقدي مرتبط ارتباطا وثيقا بالغاية التي خلق من أجلها وهي العبادة، والتفكر وسيلة لغاية كبرى ينتهي عندها أمر الخلق وهي الآخرة.

بين يدي الأيتين :

ذيّلت الأيتان بتذييل واحد "كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون"رغم وجود سبع وأربعين أية فاصلا بين الأيتين، لما كان المال عزيزا على النفس وكان بذله سمحا سهلا في الخمر والميسر مُتلذّذا به بل أحيانا يقترض الشخص للإنفاق عليهما شفعه بالسؤال عن الإنفاق مع تقدم ذكره قبل هذه الآية؛ لأن الإنفاق في سبيل الله هو الأولى، ولم يجبرهم المولى على إنفاق ما به قيام حياتهم بل أرشد إلى العفو والفضل، وهذا يستدعي التفكر، والمقارنة بين حالين للنفس، حال تجود وتنفق على ملذات وشهوات ببذل وسماحة نفس، وحال يكون بذلها منًّا وأذى ولذلك أفاضت الأيات التالية (٢٦١: ٢٦٧) و(٢٧٠ : ٢٧٤)في ذكر الصدقات عن سمح وعدم إتباعها بالمن والأذى، وأردف بأن هذا الإنفاق يتبعه أجر ويعقبه أمن وسعادة، ومن أجل ذلك تفكروا، وجمع الضمير (لكم) فالخطاب عام وليس لمتعين؛ لأن الجميع مأمور بالتفكر وكذلك ما سبق من آيات ودلائل في السورة الكريمة يقتضي إعمال الخاطر والتفكر .

المبحث الثاني

خطاب التفكر في المحاجاة

قال تعالى: "قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ" (الأنعام :٥٠)

السياق المقامي التي وردت فيه الأية:

الأية الكريمة رد على ما تقدم في قوله تعالى:"وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ"(الأنعام:٨)، ورد على ما طلبوه من أيات تُدلل على صدق الرسالة وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يأتي بالأيات وفق هواهم وجدالهم، ولا مانع أن يرسل الله ملكا، فالله ـ عز وجل ـ "يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ"(الحج: ٧٥)، ولكن لما سبق في علم الله أنهم لا ينثنون عن تكذيبهم وجدالهم حسم الأمر "وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ"(الأنعام:٨)، فحاجّهم على طريقة المذهب الكلامي، فالأيات من١: ٨ تقرر قدرة عظيم خالق قادر متصرف وفي المقابل بشر مخلوق من طين "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ"(الأنعام:٢) وفي بيان المادة المخلوق منها تذكير وتنبيه بما هو معلوم، فهل يحق لكائن مِنْ خلق الله أن يجادل ويعترض ويُعرض؟! ثم استنكر الله ـ عزوجل ـ إعراضهم فتوعدهم وأرهبهم وأمرهم وأحالهم إلى مَن سبقهم من الأمم الكثيرة البائدة وأمرهم بالاعتبار والنظر في أحوالهم وما زالوا يكذبون وينكرون؛ ثم تعيد الأيات مرة ثانية وتقرر إنكار التقليد ونبذ الأهواء، وتدعو إلى التفكر والتأمل في أحوال المكذبين السابقين، ولكنهم عمّيت عليهم الأنباء فصدوا وركنوا إلى الراحة وأبطلوا عمل عقولهم.

ثم توجه الخطاب إلى المشركين المعاندين من اليهود، فهم عليمون بالكتب السماوية ومستيقنون من صدق رسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به؛ ولكنهم كذبوه فخسروا بسبب تكذيبهم وتعطيل حواسهم أن يفقهوا ما جاء به؛ ولذلك عرّض بفقدهم حاسة السمع مع تكرار دعوتهم "إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ"(الأنعام: ٣٦) فأثبت الاستجابة لمن يسمع ونفته عمن لا يسمع فالغرض ذم الكفار، فهم في حكم من لا يسمع، والطمع في سماعهم كمن طمع في ذلك من الأصم، لأنهم سميعون في الحقيقة ولكنهم نزلوا منزلة الأصم[١] "وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَاؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ"(الأنعام: ٢٥) فالحواس موجودة ولكنهم فاقدو عملها، وأفاد المضارع (يستجيب، ويسمعون) تكرار الدعوة من رسول صلى الله عليه وسلم وتكرار السماع منهم، وتكرار الأيات مع عدم الإيمان بها.

ثم تصور الأيات ٢٨: ٧٣ شدة تكذيب وعناد وإنكار لأيات الله وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على الهداية والإسماع والاقتداء والتأسي بالرسل السابقة الذين كذبتهم أقوامهم

---

١ – ينظر معنى "إنما" في دلائل الإعجاز.عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر، ص ٣٥٦ ،ط٣، مطبعة المدني بالقاهرة،١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

ونصرهم الله، وكان سبب التكذيب تعطيل حواسهم فأصبحوا كالأنعام التي سميت بها السورة فحواسهم معطلة فلا يستجيبون لإنذار، أو يسمعون فلا يفقهون حتى إن جاءتهم الأيات كما يطلبون، ، وهم صم وبكم في الظلمات "وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ" (الأنعام:٣٩) وهم عُمي البصيرة "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ"، فشبهوا بأصم أبكم قيد كونه يسير في الظلمات، فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه أو يطلب النجدة بل تداهمه المخاطر ويتمكن منه الأذى، فلا يستطيع رده لأنه ليس أصم وأبكم فقط بل هو أعمى أيضا "في الظلمات"، وهذه أوصاف شُهروا بها "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ" (البقرة: ١٨) وتَكَرُّر ذكرها تمكين لها في قلب المخاطب وسمعه.

في مقام التكذيب بعد الإنذار خاطب الله . عز وجل . حاستين هما المسؤولتان عن ذلك "السمع والنطق" وعطلت حاسة البصر للحال التي كانوا فيها وهي (في الظلمات) استعارة للشرك والتكذيب وعدم الاهتداء للحق والصواب، فالأحياء يسمعون، والمكذبين لا يسمعون ولا يتكلمون فشبهت حالهم بحالة الموتى تنزيلا لما علموه وتجاهلوه وأنكروه بمنزلة غير الموجود أصلا؛ ولذلك يذكرهم الله بنعمه ويقررهم بأنه هو المُنعِم "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ"(الأنعام: ٤٦) أنتم عطلتم حواس استقبال الدعوة وتغافلتم فكيف حالكم إن سلبت منكم ؟ لمن تلجأون وتتضرعون في هذه الحال الذليلة؟ فالاستفهام التقريري سجل عليهم التكذيب والإنكار والإشراك وأثبته لهم، وأسلوب الأمر "انظر" أي: تفكر وتأمل لم نحاسب ونجازي ونقطع الأدبار إلا بعد تصريف الأيات وتقديم أمثلة من الذين خلوا من قبل.

وتمضي الأيات لتثبت بشرية النبي صلى الله عليه وسلم وترد وتبطل ما طلبه الكفار"قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ" فأنا بشر ولست إلها أملك الخزائن، فلا تصريف مني لغني أو فقير ولا أعطي وأمنع إنما أنا قاسم فيما أعطاني الله، وتكرر مقول القول "وَلَا أَقُولُ لَكُمْ" فهو ينفي عن نفسه ما اتهموه به "نفى ما ظنوا أنه يلزمه دعواه"[(١)]، وتكرر الفعل(قل و أقول) يشير إلى أن ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم اعتقاده[(٢)]، والاعتقاد يخفى ولا يعرف إلا بالعبارة عنه؛ ولذلك كانت الرسالة وحيا يُقال، والرد عليهم وجدالهم كلاما يقال أيضا، والكلام يتلقاه السامع بسمعه فينفذ منه إلى قلبه وعقله، فيعمل فيه خاطره وفكره، وعطف "وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ" على ما قبله لأنهما صفتان متناسبتان تخصان مقام الألوهية التي تنافي الملائكية؛ ولذلك أعاد العامل "وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ" لاستقلاله بحكم ينافي الحكم الأول.

((١))– نظم الدرر ٧/ ١٢٢

٢– ينظر الخصائص. ابن جني، تح: محمد علي النجار، ١٧/١ وما بعدها في معنى "القول"، دار الكتب المصرية.د.ت.

قوله تعالى:"إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ" قصر طريقه النفي والاستثناء قصرا إضافيا، لأنه يتعذر أن يكون الرسول . صلى الله عليه وسلم . مقصورا على الاتباع ولا تكون له صفات أخرى تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر، قصر صفة على موصوف، وقصر قلب؛ لقلب اعتقاد المكذبين أن الرسول لا يكون رسولا حتى يعلم الغيب ويملك المفاتح أو يكون ملكا، فالأقوال والأوصاف التى نفاها رسول الله . صلى الله عليه وسلم . عن نفسه تنافي أن يتبع ما يوحى إليه، ، وهذا مدح وثناء لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . لكونه لا يحيد عن الرسالة التي أُمر بتبليغها.

ثم أتبع بأسلوب استفهام إنكاري توبيخي ليتبين البون الشاسع بين الحالين المتضادين ويستدرجهم إلى الاعتراف بالخطأ "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ" فـ(الأعمى والبصير) مثل للضال والمهتدي، أي: هل يجتمع الضدان في عقل؟ وهل يستويان؟ إن هذا مما لا شك ببطلانه فكيف تسوون أنفسكم بمن هداه الله وكان على بينة من ربه؟ وإذا كان الضدان لا يجتمعان فأنتم لا تستحقون أن تكونوا بشرا لأنكم عطلتم فكركم، فإذا كان الأعمى والبصير مستويين فأنتم لا عقول لكم ولا فكر يرشدكم، لاستحالة اجتماع واستواء الضدين.

والتذييل بالسؤال"أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ" تذييل جار مجرى المثل، غرضه: إيلام المشركين وتوبيخ وتهكم وتجهيل وردع وتهديد وبيان للأفضلية بدليل على طريقة المذهب الكلامي، فإذا كانوا ينكرون استواء الأعمى والبصير، فيتفرع عليه إنكار التفكر لمن حاله مثل حال الأعمى؛ لأن همزة الاستفهام داخلة على حرف العطف (الفاء) التي تفيد معنى السببية، فعدم التفكر سببه العمى وعدم الاهتداء، فالبيان القرآني نفى عن رسول صلى الله عليه وسلم ملك الخزائن وعلم الغيب والملائكية، وأثبت أنه بشر يتبع ما يوحى إليه ويفكر فيه، فهداه عقله إلى كونه صوابا يطابق الفطرة وفضائل الأمور فاتبعه فلذلك هو قويّ العقل صحيحه، والقوة العقلية كأنها القوة الباصرة في العين، أما من رضي لنفسه أن يساق ويقاد فهو أعمى مقلد، وهو بذلك يرجّح كفة الحق والصواب على الاتباع والتقليد، فإذا كان الأعمى والبصير متساويين، فالنتيجة أنكم لا تتفكرون ومن لا يتفكر فهو مسلوب نعمة العقل كالأنعام بل هو أضل سبيلا، كما أنه لا يدرك الهدى ولم يتمثل الأمثال التي ضربها الله للناس لضعف حسه وبلادة شعوره.

فإذا كان حالكم الإنكار والتكذيب والجدال والتشكيك فلا يتساوى حالكم وجزاؤكم بمن يتبع ما يوحى إليه؛ لأنكم تمتعتم بوجود نعمة الحواس ولم تسلب منكم ولكنكم رضيتم بالحيوانية فعطلتموها أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟ ولذلك أعرض عنهم البيان القرآني وانتقل إلى بيان حال الذين أعملوا نعمة هذه الحواس ونفوا عن أنفسهم الحيوانية فدعوا ربهم غداة وعشيا يريدون وجهه، ولما كان هؤلاء أهل لدد وجحد وجدل وعناد تتابع الرد عليهم وحيا من عند الله تعالى في إحدى عشر أية متصدرة

بأسلوب الأمر"قل" في الأيات(٣٧، ٤٠ ، ٤٦، ٤٧، ٥٠ ، مرتين، ٥٤، ٥٦: ٥٨ ، ٦٣ :٦٦، ٧١: الأنعام)، فالرد ليس من عنده صلى الله عليه وسلم بل وحي أمره الله تعالى وكلفه أن يقوله لهم؛ ليدفع عن نفسه اتهامهم له بالسحر والكذب وسرد أساطير الأولين، ووكلهم إلى الفكر ليتفكروا في حال أنفسهم وما أُنذروا به؛ لأنهم أهل فكر وبيان.

المبحث الثالث

خطاب التفكر في ضرب الأمثال

وجه المناسبة بين سورتي الأنعام والأعراف:

رغم أن سياق التفكر في سورة الأنعام يختلف عن سورة الأعراف إلا أن هناك ارتباطا ومناسبة بين السورتين المتتاليتين، فالسورتان مكيّتان، والمعنى الأم في السورتين هو تكذيب الرسل، ففي مفتتح الأنعام تحدثت السورة عن التكذيب بالحق والاستهزاء بالرسل وعاقبة المكذبين، ثم توالت الأيات وتتابعت وترقى البيان القرآني في ذكر عاقبة مكذبي الرسل، وأثبت الله عز وجل كذبهم وإقرارهم به ببيان عاقبتهم وتسجيل الكذب عليهم، فتمنوا العودة إلى الحياة ليؤمنوا بما جاء به الرسل، ثم قرر مصيرهم وخسرانهم، وأجمل بذكر الرسل السابقة لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم"وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ"(الأنعام: ٣٤)، وفُصّل هذا الإجمال بذكر قصص الرسل السابقين وأحوالهم في سورة الأعراف في سياق تكذيب المكذبين لهم، ثم انتهى مطاف هؤلاء المكذبين بنتيجة حتمية وهي العذاب الأخروي، وفي الحياة الدنيا سُلبت عنهم الحواس فترتب عليه سلب الفكر تورية بكونههم أنعام، وهو ما ظهر ووضح مشارا إليه بإشارة حسية في قوله:"لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"(الأنعام:٥٠)، ثم عادت أيات الأعراف لتفصِّل حالا آخر من حال المكذبين فهم مثال سيء، ظالمو أنفسهم، ومستدرجون من حيث لا يعلمون، ثم سلب

الحواس عنهم لتعطيلهم لها وتقرير ضلالهم بتشبيههم بالأنعام، والإضراب عن ذلك وجعلهم في مرتبة أقل زراية لهم وتوبيخا وتجهيلا وتشهيرا بضلالهم، فأتى الاستفهام التوبيخي الإنكاري والتعجيب من حالهم في قوله:"أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ"(الأعراف:١٨٤) فالاستفهام هنا نظير الاستفهام في قوله:"أَفَلَا تَتَفَكَّرُون" (الأعراف:١٨٥)، ولما كان الفكر مرحلة راقية يتميز بها العقلاء وهم أضل من الأنعام انحدر الخطاب إلى مرتبة أقل "أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ"(الأعراف:١٨٦) فزَجْرهِم بعدم النظر أولى بهم ومحقق في جانبهم إن لم يعتبروا بأيات الرسل وبشاراتهم ونذرهم، فلينظروا في ملكوت السموات والأرض ومخلوقات الله من حولهم في واقعها المشاهد المحسوس ودورات حياتها الطبعية من المبدأ إلى المعاد.

الأية الأولى: قال تعالى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (الأعراف ١٧٥: ١٧٦)

السياق المقامي التي وردت فيه الأية:

افتتحت السورة بوجوب إتباع ما أنزل من عند الله وعدم تقليد الآباء واتباعهم، ثم تذكير بإنعام الله على الإنسان وتمكينه في الأرض، وفي هذا المقام ذكرت قصة ءادم عليه السلام ورفض إبليس السجود له مما أثار حسده وبغضه وتوعده بإغواء ذريته، وكذلك مقام منّ على ءادم بإسكانه الجنة والإطعام من أي مكان فيها، وكان المرتكز هنا إغواء الشيطان والتحذير من فتنته، وإعمال العقل، وعدم تقليد الآباء، وعدم الكذب، والتقول على الله بغير علم؛ ولذلك استتنكر بنو ءادم العذاب فرموا غفلتهم وضلالهم على تقليدهم لمن سبقهم "أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ" (الأعراف:١٧٣).

واختتمت أية ضرب المثل بقوله تعالى:"ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا" أي:حال الكلب المذكورة كحال المشركين المكذبين، وعرف المسند إليه (ذلك) باسم الإشارة الموضوع للبعيد لتنزيل الإشارة العقلية منزلة الحسية المشاهدة، فالمثل غير مدرك حسا فكأنه بعيد، والتنبيه على أن المشار إليه جدير بما يرد بعد من أوصاف، فالمثل المعنوي المتقدم ذُكر في الشقاء والإعراض وتَرْك الأيات هو مثل للذين كذبوا بئاياتنا، وأعرض عن ذكر صريح الحكم، فالسكوت عن تفصيل الجزاء أبلغ من الذكر[١]؛ لتفخيم مقدار الجزاء وإبهامه وتهويله، وفرّع على ذلك الأمر بقوله:"فَاقْصُصِ الْقَصَصَ" تذييل للقصة المُمثِّل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكرا وموعظة فيُرجى منهم تفكرهم وموعظتهم؛ فلاستحضار النظائر والأمثال شأن

١- ينظر باب الحذف في دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .

عظيم في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة[١]،وتقريب المعقولات الخفية في صورة مشاهدة محسة تراها النفوس الغافلة فتتفكر وتتعظ، فالانسلاخ من الأيات وإتباع الهوى والغواية والركون إلى الحياة الدنيا مثل ضربه الله تعالى للذي كذب بئاياته، فصورته مثل صورة الكلب الذي يلهث في كل أحواله زجرته يلهث، تركته يلهث، فلا يتبين المراد من هذا اللهث، بجامع الهيئة الحاصلة من الثبات على حال واحدة في كل الأحوال، واستمرار حال الضلال وعدم تغييرها بالنصح والإرشاد، فالغرض من التمثيل بالكلب إظهار خسة المشبه، والمثل المضروب إجمال لما سبق تفصيله من حال المكذبين الذي تكرر في كل ءايات السورة والذي من أجله قصّ البيان القرآني قصص الرسل السابقين وبيّن أنواع العذاب الذي أحيط بأقوامهم بسبب تكذيبهم ليتفكروا في حالهم وما هم عليه من ضلال؛ ولذلك ذيلت الأية الكريمة بما يجري مجرى المثل بقوله:"فَاقْصُصِ الْقَصَصَ" وهي تعليل لذكر المثل وتفريع على ماقبله؛ لأن الكلام على تقدير سؤال بعد الطلب(اقصص) لماذا يقص القصص؟ وهو سؤال عن العلة والحكمة والمصلحة والغاية من ذكر القصص.

"لعلهم يتفكرون" تعبير بالخبر في موضع الإنشاء: فاقصص القصص ليتفكروا، فإن المقام يشتمل على تضمين "لعلهم يتفكرون" معنى الطلب بدليل ما قبله "فاقصص.."؛ ولذلك فصل الكلام عن ما بعده "ساء" لأنه خبري، أي: يعملون حاسة التفكير المعطلة، ويكونون في حال يرجى لهم التفكر بعدما سمعوا وأخبروا عن حال الأمم السابقة، ولم يكن القص لأخبار من سبق لمجرد التفكه والتسلية، وعبر البيان بـ"لعل" التي هي للرجاء والرغبة، والله تعالى غني عن أفعال العباد ولكنه يخاطبهم بما يألفون ويعلمون وكأنه يحب لهم التفكر وتنشيط العقل وإيقاظه "حتى يكون التدبر والتفكر والتعقل وكل ما هو من قبيل الأعمال العقلية عادة معتادة وسلوكا متجددا"[٢]، فالرجاء هنا إعمال لفكر وتحريك لخاطر، والمعقولات قد يخالطها أوهام وظنون وتلبيسات وغواية الشيطان، فذيّل وأردف الأية الكريمة بما يصحح مسار الفكر بنتيجة حتمية "سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ" (الأعراف: ١٧٧)، وجاء فعل التفكر"يتفكرون" مطلقا دون تقييد، فلم يتعد إلى مفعول؛ لأن الغرض هنا إثبات الإنسانية والتفكر على الإطلاق والجملة للمكذبين في سورتي الأنعام والأعراف، أي: تحرير العقل وبعثه للتفكير، والمراد منهم إعمال عقولهم واستخدام وممارسة ملكة التفكر التي عطلوها بسبب التقليد وإتباع الآباء؛ ولذلك لم يتعرض لذكر المفعول، فالمراد إثبات التفكر فعلا من أفعال الإنسان يكون منه.

---

١. التحرير والتنوير ١٧٩/٩

٢. الزمر. محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان.د.محمد أبو موسى، ص٢١٠،ط١، مكتبة وهبة ١٤٣٢هـ. ٢٠١٢م .

الأية الثانية: "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(يونس:٢٤)

وجه ارتباط سورة يونس بسورة الأنعام:

قوله تعالى:" وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ.."(الأنعام:٨) لم يرتض الكافرون بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وتعجبوا منها فرد تعالى:" أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ"(يونس:٢) وهذا إنكار وتكذيب لما جاء به الرسول من عند ربه وإبطالهم أثره وظنهم أنه عرض وقتي فأكد إنكارهم بـ"إن واللام"؛ لأنهم عقدوا قلوبهم على نفي ما جاء به وظنوا أنه ليس حقا ولم يوح إليه، فللمخاطبين (الكفار) ظن في الخلاف فكان جوابهم على إنذار الناس وبشارة المؤمنين "إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ"؛ ولذلك أمر النبي . صلى الله عليه وسلم . أن يجيبهم فيما جادلوا فيه وناظروا، فأكد الكلام "إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ"(يونس:٣) وبدأ بصفة الربوبية (ربكم) قبل الألوهية ليذكرهم بنعم الله عليهم رغم ما هم فيه من كفر وجحود، ثم ثنّى وأخبر بصفة الألوهية (الله) لتأكيد وإثبات نفي الشريك واختصاص الله بالخلق والأمر؛ ولذلك ذيل بقوله: " ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ " فقدم الألوهية على الربوبية ثم أتبعه بالأمر (فاعبدوه) لبيان سلطان الألوهية وجبروتها وسطوتها وتفردها بالأمر، ثم أتبعه بالربوبية ليتفرع على هذا أن الإله الواحد الجبار هو الذي ربّاكم وخلق الكون وسخره لخدمتكم، فوجب وفرض عليكم أن تعبدوه، فسبق الألوهية والربوبية علة للعبادة وتفسير لها، ثم ذيل الأية بما يجري مجري المثل "أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ" توبيخا وتقريعا للكافرين لغفلتهم ونسيانهم، ثم أتبع التذييل بحجج وبراهين عقلية ليعملوا العقول فتشهد بالصحة وتأخذ به وتعمل بموجبه، فأثبت الإماتة والبعث إليه إثباتا مؤكدا بطريق القصر الحقيقي "إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا"(يونس:٤)، ثم اعترض بقوله تعالى:" وَعْدَ اللّهِ حَقًّا" للتأكيد والتثبيت ونفي حجج المشككين "أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ"(النازعات١٠: ١١)؛ ولذلك أتبع التأكيد بتأكيد لفظي"إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ" فتأكيد القصر معنوي أتبع بتوكيد لفظي بالحرف"إن" وضمير الشأن لتفخيم وتعظيم وإفراد المولى . عزوجل . بالمبدأ والمعاد، وأتبعه بعلة تقضي العقلاء بصحتها "لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ"(يونس:٤) وهنا في مقام الألوهية وبسط سلطانها يقام العدل، فأوجز في ذكر جزاء المؤمنين وجعله قسطا، وفصّل في عقاب الكافرين؛ لأن المقام مقام توعد وزجر للكافرين وإبطال حججهم ورد

لإنكارهم فلم يناسبه ذكر الرحمة والفضل والمغفرة، بل يناسبه القسط والعدل لكلا الفريقين، فلم يع الكافر وجه الحكمة فتردعه، ولم يعمل العقل فيكفه النصح ويمنعه، فأردف ذلك ببيان الأيات، فإذا كان الرسول . صلى الله عليه وسلم . الإنسان ساحر متكلف ظاهر السحر وأنتم تعرفون السحر جيدا فلا تصدقوه وتفكروا فيما حولكم من أمر وخلق معللا بعلل تعلمونها وتعرفون أمرها، والعلل هنا عقلية، لزجر المخاطب عن الإيمان بالله ومعرفة خلقه وأمره إلا ببرهان حقيقي لا يمكن الغلط فيه ففصل . عز وجل . بذكر الخلق من شمس وقمر وليل ونهار وما خلق في السماوات والأرض وذيّل التفصيل ببيان علة الأيات "أفلا تذكرون . يفصل الأيات لقوم يعلمون . لأيات لقوم يتقون" ثم أتبعت الأيات ببيان مآل الناس إلى فريقين فريق لا يرجو لقاء ربه وفريق ءامن وعمل الصالحات، وهذه نتيجة ختم بها البيان القرآني الحديث عن الأيات الكونية الربانية وبيان قدرة الله . عز وجل . وألوهيته وربوبيته، فإذا كان الخلق والأمر لا يعنيكم فالمآل الذي تؤول إليه نهايتكم مطلوب لكم ومرغوب، وما من عاقل إلا وهو حريص على ما ينفعه ولكن فتوره عن سلوك طريق السعادة لنقص عقله وضعف إيمانه وتقليد من سبقه يزجي به إلى الغفلة عن لقاء الله والركون إلى الدنيا والاطمئنان بها، ومن ثم الخلود في النار وكل ذلك سببه الغفلة "وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ"(يونس ٧: ٨).

وتنوع البيان القرآني في الأمر بين الترغيب والترهيب والتذكر والاتقاء، غفلة وعذاب، جنات نعيم وحمد، قضاء الأجل وكشف الضر، فأدمج الحديث عن تكذيب المشركين وإنكارهم بذكر مآل مَنْ يرجو لقاء ربه ومن عمل الصالحات وتضمن ذلك مقابلة وتعليل وإشارة وحسن بيان، وتلطف من الله . عزوجل . وإنعام ربوبيته من إملاء الله عز وجل وكشف الضر والاستخلاف في الأرض للمشركين الكافرين المعاندين الذين عرفتهم هذه السورة ثلاث مرات الموصولية "الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا")(١) للإيماء إلى أن الخبر المبني عليه (أو المحكوم به) أمر من جنس العقاب والإذلال والتبديل والتحريف والتضييع والتكذيب وتعريض بتهوين شأنهم وتحقيرهم فإن عدم رجاء اللقاء علة لدخول النار والترك في الطغيان ورفض القرآن وتبديله.

ثم يحاورهم النبي . صلى الله عليه وسلم . بالتي هي أحسن، فذكرهم بإنعام الله عليهم وكشف الضر عنهم واستخلافهم في الأرض وبرغم ذلك فإنهم كفروا وكذبوا وشككوا وأمروا الرسول . صلى الله عليه وسلم . بترك القرآن أو التغيير فيه كما كان ديدن من قبلهم من اليهود في تغيير التوراة فرد عليهم "قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي"(يونس:١٥) تعريض بفعلهم وتبديلهم وتغييرهم وأجابهم بقوله تعالى:"إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ" وكذلك ورد هذا القول وتكرر في سورة الأنعام:٥٠ وهو

١. الأيات ٧، ١١، ١٤ .

أكبر دليل على صدق الرسول . صلى الله عليه وسلم . فاختلفت المقامات والسياقات ولكن قوله واحد في العقيدة وموقفه ثابت في شأن الدعوة والقرءان شافعا ذلك بعلة الاتباع "إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" وردت"إني" في الجواب لتصحح اعتقاد المخاطب، فجاءت جوابا لسؤال لماذا تتبع ما يوحى إليك؟ ثم انتقل إلى شحذ عقولهم وبعثها ليتفكروا "قُل لَّوْ شَاء اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ" (يونس:١٦) نفى عنهم الفطرة وهي التعقل الفطري لمجريات الأمور، ثم توالت أيات الحجاج متكررا فيها أسلوب الأمر"قل")(١) تأييدا ونصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان أن الرد من ليس من تلقاء نفسه، وكذلك ورد حديث مجمل عن التحريم والتحليل لرزق الله "قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً" (يونس:٥٩) فُصِّل ذلك في الأنعام، وردا لعجز سورة يونس على صدرها ختمت السورة بقوله:"وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ"(يونس:١٠٩) بما بدأت به وجاء الأمر في نهاية السورة تثبيتا للرسول . صلى الله عليه وسلم . على أمره وتسلية له.

التحليل البلاغي للأية:

قال تعالى:"إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(يونس:٢٤)

المقام إظهار قدرة وإنعام من الله عز وجل على عباده فأُسند نزول الماء إليه إشارة إلى أنه لا ينزل إلا بقدره، ويمكنه حبسه عنكم فتفنى دنياكم، وليتأمل تقدم ذكر الماء أولا رغم أن الهيئة المشبهة بها مركبة؛ لأن الماء عنصر أساس في هذا التشبيه، فرغم كونه أساس الحياة ودعامتها على الأرض إلا أنه سريع التبخر وقابل للتبديل والتحويل من حال إلى حال وكذلك الحياة الدنيا أحوال وتقلبات، والماء لا ينفع إلا الحي وكذلك الحياة الدنيا ينتفع الحي فيها بالعمل الصالح وإذا مات انقطع عمله، وقوله:"فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ" إشارة إلى أن المقصد الأساس من نزول الماء هو قِوام الحياة ونفع الناس والأنعام الذين هم مسخرون لخدمة الناس ونفعهم، والمنفعة الأم من اختلاط الماء بنبات الأرض وإنبات الزرع وتعمير الأرض هي عبادة الله، وكون المشبه مفردا في مقابل المشبه به هيئة مركبة مكونة من عشر جمل إشارة إلى ضآلة الحياة الدنيا وقصرها وسرعة انقضائها بعد عظيم إقبالها رغم ما يمر به الإنسان في حياته من مراحل، وكلمة "مثل" لا تقتضي أن تكون الحياة الدنيا أكلا ولهوا وزينة فقط فهناك غاية عظمى غير ذلك؛ ولذلك لم يكن البيان: الحياة الدنيا ماء، ووصف الحياة بـ(الدنيا) تحقير لها، وتكرار ذكرها في هذه الأية والتي قبلها تعطف.

١- الأيات ٣١، ٣٤ ، ٣٥، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٩: ٥٠ ، ٥٣، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٩، ١٠١، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨

والمثل المضروب هنا للوعظ "وإن كان وعظا، كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر أن يُجلّي الغياية، ويبصر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل")[١]، فيتضافر العقل والشعور مع التعبير القولي عن هذا المثل، والإبانة بـ (إنما) دون غيرها من أدوات القصر لكون المثل أمرا لا يشك فيه ولا ينكر وهو أمر ظاهر معلوم ولا يدفع ولا يخفي)[٢]، فأخرج التمثيل ما يعلم بالفكر والروية إلى ما يعلم بالحواس ويزيل الشك والريب لتحقق الأنس بالمشاهدة والمعرفة، والتمثيل هنا بيَّن مقدار المشبه به؛ لأن مقدار حجم الحياة الدنيا يتفاوت في العقول ويتفاوت حسب يقين المتلقي ودرجة إيمانه وهذا غير معلوم؛ ولذلك ورد التمثيل ليحدد مقدار ضآلة الحياة الدنيا فيزول شك من يبغون في الأرض بغير الحق، ويفتح للمعنى المعقول بابا من العين "....أن المعنى إذا أتاك ممثلا، فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه")[٣] ولهذا كان التمثيل المحوج إلى إعمال الفكر لكونه عقليا مناسبا تذييل الأية الكريمة "كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون"، فهذا التفصيل الذي يحوجك إلى إعمال الفكر هو الذي يتميز به الإنسان والذي بسببه يستحق فريق الجنة وفريق النار؛ ولذلك أعقبت الأية بقوله تعالى: "وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"(يونس:٢٥) التعميم في المفعول "من يشاء" يعم كل متفكر بعقله في الأيات المفصلة.

وذيل بقوله:"كذلك نفصل الأيات.." تذييلا جامعا جاريا مجرى المثل والحكمة، فالجملة نتيجة للجمل التي قبلها وتأكيد لمضمونها، والإتيان في صدرها بالاسم الإشارة للإيقاظ؛ لأن هؤلاء الباغين أحرياء بالإيقاظ والتنبيه بطريق اسم الإشارة وأنهم خليقون بأن ينظروا ويتفكروا فيعتبروا، ولما كان المثل مركبا من عدة عناصر وصور مفصلة تفصيلا وكان كل صورة منها تصلح أن تكون مثلا مستقلا بنفسه جمُعت الأيات.

وعبر البيان بـ"نفصل" دون "نبين" كما في البقرة، فالتفصيل: التبيين والفصل والقطع والحق)[٤]، ومن معاني صيغة "تفعّل": التكلف، والعمل بعد العمل في مهلة)[٥]،فالبيان والتفصيل إيضاح وتكلف بيان لقوم معاندين جاحدين أو غافلين ساهين، وعلى ذلك فالبيان وضوح وجلاء وإظهار الأيات؛ ولذلك جاء في سياق سؤال المؤمنين عن الخمر والميسر والإنفاق في سورة البقرة ، فهؤلاء يحتاجون الكشف والإيضاح

---

١. أسرار البلاغة. عبد القاهر الجرجاني، تحقيق:محمود شاكر ،ص١١٦، دار المدني بجدة .
٢ – دلائل الإعجاز ص٣٣٢ .
٣. أسرار البلاغة ص ١٣٩
٤ – لسان العرب مادة (فصل).
٥. ينظر شرح المفصل.ابن يعيش، تح:د.إيميل يعقوب،ط١، معاني تفعل ٤/٤٣٨، دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ.م.٢٠٠١ .

وليسوا منكرين، أما في سورة يونس فالحديث عن منكري البعث المعرضين عن أيات الله وهؤلاء يحتاجون تفصيل الأيات أي: أيات قاطعة فاصلة تدلل وتؤكد على انقضاء الحياة والدنيا وزوالها، ووحدانية الله وألوهيته، وإنعامه على عباده فهو القادر على كشف الضر وهو الخالق المدبر للأمر، والإتيان بالفعل مضارعا لإفادة تكرار التفصيل مع كل أية، وجعل التفصيل لأجل قوم يتفكرون أي الذين من شأنهم التفكر لما يؤذن به المضارع من تجدد التفكر، وإنما يتجدد لمن هو ديدنه ودأبه.

وعبر البيان بـ"لقوم" دون أن يقال: للذين يتفكرون أو للمتفكرين "لأن إجراء الوصف على لفظ قوم يومئ إلى أن ذلك الوصف سجية فيهم، ومن مكملات قوميتهم، فإن للقبائل والأمم خصائص تميزها وتشتهر بها"[١] ومن معاني مادة (قوم): المحافظة والإصلاح والملازمة والثبات والمواظبة والتمسك بالشيء[٢]، فتفصيل الأيات لقوم مشتهرين بالتفكر والنظر ملازمين لهذا الوصف ثابتين عليه مصلحين، وتعريض بمن ليسوا من أهل الفكر فهم كالأنعام وليسوا أهل تمييز، وإشارة إلى أن هذا المثل مضروب للمتفكرين أما من يعمل بخلافه فهو لا يستحق أن يوصف بما يوصف به القوم، "وخص المتفكرين بالذكر تشريفا للمنزلة وليقع التسابق إلى هذه الرتبة"[٣] .

الأية الثالثة:"لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"(الحشر: ٢١)

هذه الأية ختام الأيات التي ختمت فواصلها بالتفكر في القرآن الكريم على حسب الترتيب الورودي في المصحف، وهي إجمال وتلخيص لما سبق ضربه من أمثلة حسية وإشارات متكررة لخلق السماوات والأرض وما فيهما من أيات كونية هي باب لمعرفة الله تعالى بالتفكر في أياته المشهودة، وتأمل حكمته فيها وقدرته، فالأية الكريمة تمثيل وتخييل وتصوير لشعور القاسية قلوبهم حين يسمعون القرآن الكريم حتى يُتوهم أن هذا الشعور ذو صورة تُشاهد تظهر للعيان، فافتتحت الأية بأداة الشرط "لو"، وجملة الشرط مفروضة غير ممتنعة بدليل قوله تعالى:"فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا" (الأعراف:١٤٣)، وقوله تعالى:"يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ "(سبأ:١٠) فالشرط بـ(لو) لفرض ما ليس بواقع واقعا إما في الماضي والحال وهو الأكثر أو المستقبل وهو قليل، وإنكار كون "لو" امتناعية جحد للضروريات،

---

١. التحرير والتنوير ٧٧/٢

٢- لسان العرب مادة (قوم).

((٣))- الجواهر الحسان في تفسير القرءان.تفسير الثعالبي، ١٧٦/٢، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت.د.ت.

ودعوى ذلك مطلقا منقوضة بما لا قِبَل به[1]، والغرض منها هنا التعريض بذم وتوبيخ مَنْ ليس له هذا الخشوع، وأنه لفرط عناده كأنه ليس له أذن تسمع وعقل يعي وقلب يتدبر؛ وهذا ما أثبته قوله تعالى:"ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ"(الحشر١٣: ١٤)؛ ولذلك ذيّل المثل بقوله: "وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ" جمعت الأمثال باعتبار تعدد ورودها في القرآن الكريم، و.(الناس) اسم جنس والمراد به المكلف، والتكليف تشريف؛ لتخصيص الإنسان دون غيره من المخلوقات به، فمن لا يتفكر ويتدبر في هذا المثل وغيره من أمثال القرآن العظيم فلا يكاد يستحق اسم الإنسانية وصفاتها من وجود العقل والذكر وسائر القوى العقلية، فخوطبوا خطاب المُعرض وزجروا، فالمثل للجبل والمراد تنبيه الإنسان على قسوة قلبه وتهييجه، والمقام إلزام وحجاج للذين نسوا الله ليعقلوا فيفقهوا أياته ويتفكروا فيها، والإبانة بـ(لعل) في هذا المقام تربية للناس، فالرجاء أمر محبوب للناس والله عز وجل يريد لعباده الترقي في الفضل فنبههم إلى ما يزيدهم تزكية وإيمانا فحثهم على الفكر، إيقاظا للهمم الراقدة وتهييجا للطاقات البشرية الكامنة؛ فترك مواجهتهم بارتكاب الباطل وأسمعهم الحق على وجه لا يثير حفظيتهم وغضبهم، فالجبل الراسي الشامخ الجامد خشع وتصدع فكيف حالك أيها المتفكر !

١- ينظر طبقات الشافعية الكبرى. تاج الدين السبكي، تح: عبد الفتاح الحلو، ومحمود الطناحي، ١٠/ ٢٧٨وما بعدها، دار إحياء الكتب العربية.د.ت.

المبحث الرابع

مقام الإنعام

الأية الأولى:

قال تعالى:"وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(الرعد:١٣)

المبنى الذي قامت عليه السورة أن أكثر الناس لا يؤمنون بالحق الذي أنزل من عند الله لأنه غيب؛ ولذلك ألجأهم الله تعالى إلى المُشاهَد المُعَاين بالحواس فقال:"اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الأَيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ"(الرعد:٢) الأية الكريمة مستأنفة، والاستئناف يعطي الكلام المستأنف قوة وتمكينا؛ ولذلك بدئ باسم الجلالة مظهرا معرفا بالعلمية (الله)، ولم يُشَر إليه بالضمير العائد إلى (ربك) لتقرير وترسيخ أن الخلق والأمر كله بيد الله؛ فإذا كنتم لا تؤمنون بغيب فانظروا إلى ما تعقلونه وتعرفونه جيدا وهو رفع السماوات بغير عمد وتسخير الشمس والقمر بمواقيت محددة مسماة، هل لديكم شك فيمن فعل ذلك؟ وفي تعريف المسند إليه بالعلمية (الله) إشارة إلى أن هذا الاسم مختص بالمسند إليه إذا أطلق لا يراد به غير المولى جد شأنه، ثم عرف المسند بالاسم الموصول "الذي" ليتخصص المسند إليه بمضمون الصلة وهو رفع السموات بغير عمد والاستواء على العرش، وتسخير الشمس والقمر، فأفاد تعريف الطرفين القصر، كما أفاد التعريف

بالموصولية تعظيم شأن الخبر فالقصد هنا إلى رفع الله السموات، فاسم الجلالة (الله) مسند إليه الرفع ومثبت له، والخبر (الذي رفع) مسند لأنه مثبت به معنى الألوهية فلا يفعل ذلك غيره، والإخبار بالذي لابد أن يكون للمخاطب أو السامع علم بأن السماء مرفوعة بغير عمد، والشمس والقمر مسخران، والأرض مُدّت، والرواسي والأنهار مجعولان، والليل يغشي النهار، ولكنه اعتاد وجودها، ويؤمن أنها موجودة بفعل الطبيعة المادية بدليل قوله:"وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ"(الرعد: ١٣)، وكذلك ينكرون أمر البعث "وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ" (الرعد: ٥)؛ ولذلك تكرر النص على موجد الكائنات بتعريفه بالعلمية والضمير "اللهُ يَعْلَمْ..، هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ...، اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ"(الرعد: ٨، ١٢، ٢٦).

ثم عرف المسند إليه بالضمير في قوله:"وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ" فالإبانة أولا بـ"ربك" ثم اسم الجلالة "الله" ثم بالضمير "وهو"، فقوله:"ربك" يشير إلى أن عطاء الربوبية حاضر موجود رغم الجحود "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ"، وفي مقام التفرد والألوهية عبر باسم الجلالة "الله"، ثم عرف المسند إليه بالضمير "وهو الذي" احترازا من الإلباس إذا أعيد اسم الجلالة أن يتوهم عند المشركين أنه غير اسم الجلالة الأول "المضمرات لا لبس فيها"[١].

هؤلاء قوم لا يؤمنون، وهم منكرون فلا يعملون عقولهم ولا يؤمنون بإله غيبي بدليل قولهم: "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى" (الزمر:٣)؛ فلذلك لا يؤمنون بكتاب مُنزل حتى ولو كان حقا، ولما كانوا كذلك انتقل القرآن الكريم معهم لما يلائم طبيعتهم وفطرتهم المادية رغم كونهم أهل لسن وبيان ولهم من الصور والأخيلة في الشعر الجاهلي ما ينم عن ذكاء وقاد وقريحة صافية، فانتقل بهم إلى عالم الحس المرئي الذي يشاهدونه "الله الذي رفع" فأوضح لهم من دلائل القدرة ما لم يستطع نفيه إلا كافر جاحد ينكر ضوء الشمس من سقم، فأثبت ذلك أن له الخلق ولما كان الأمر مما ينكرونه بدليل قولهم: "وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ"(الجاثية:٢٤) انتقل البيان القرآني من التعبير عن اسم الجلالة الظاهر إلى الضمير (هو)، والضمير به كناية، أي هذا الإله الذي لا ترونه هو الذي مد الأرض التي تطأونها بأقدامكم المرئية لأعينكم، وهو الذي بسطها وسوّاها وجعل فيها أسباب عمرانها وخصوبتها وأرساها بالرواسي الشامخات وجعل أسباب الحياة متدفقة في أنهارها، وأمدكم بنعم الفواكه المختلفة، ويسدل الليل على النهار فيغشاه، كل هذه الأيات الكونية المشاهدة أيات ودلائل واضحة على قدرته وعظمته وتفرده بالألوهية، واستدراج إلى الإذعان، ولما كانوا معاندين كافرين بربهم ذُيلت الأية بقوله:"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" أكد الكلام بـ(إن واللام) لتمكين وتحقيق كون هذه الدلائل أيات في قلب السامع، وأمن من غفلته، وإماطة شبهة أن يُظن أن هذه الموجودات من فعل الطبيعة،

---

١. شرح المفصل ٨٥/٣

وتنزيله لتماديه في الغفلة منزلة من ينكر، ولذلك وبخهم وعرّض بهم بقوله:"لقوم" فمَنْ كان ديدنه ودأبه التفكر والتقدير ثم ألغى عقله وتحجر على تقليد الآباء فلا يستحق أن ينسب لأهل الفكر، وكون الفعل "يتفكرون" مضارعا لأن المدعوين للاعتبار والتفكر في الأيات ليس من بادوا، وإنما يعتبر الحاضر، ويتفكر الشاهد.

ختم الأية بالتفكر يفصح عن عمل ذاتي داخلي أي: انظر، وتأمل، واعتبر، وقلّب بصرك، واسأل فؤادك وسمعك طالما لا تغني الأيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، فارجع البصر وكرره، وقارن بين مقدرتك وأفعال العباد جميعا ومقدرتهم، هل من شركائكم من يفعل ذلكم؟ هل شعرت بالنقص والعجز عندما تنظر في السماوات وما بناها والأرض وما طحاها؟ هل الذي أنشأهما أول مرة عاجز أن يعيدهما بعد فنائهما؟ ولذلك سجل الله ﷻ العجب من أفعالهم، فهم ينكرون البعث "وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ"(الرعد:٥) هذه حال عجيبة تستدعي العجب فمن أنشأهم وأنشأ هذه الأجرام العجيبة هل يعي أن يعيد ما خلق مع أن الإعادة أسهل من الإنشاء خلقا أول، وبمقارنة خلق الإنسان مع خلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما ماذا يساوي الإنسان بجانب هذه الأجرام العظيمة؟ هل إعادة بعثه مستحيل؟ إن هذا لشيء عجيب.

الأية الثانية:

قال تعالى:" هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(النحل١٠ :١١)

المعنى الأم في هذه السورة "أمر الله" ولذلك تكرر في مستهل السورة "أَتَى أَمْرُ اللّهِ"(النحل:١) و"يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ"(النحل:٢)؛ ولأن السورة تقرر قدرة الله وربوبيته وألوهيته فصّل المولى جدّ شأنه أمر الخلق، فذكر خلق الكون "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ"(النحل:٣)، ثم أردف بخلق الإنسان "خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ" (النحل:٤) وفصّل بذكر مادة خلقه "من نفطة" ليذكره دائما بضعفه مُنعمًا عليه بالمنطق والبيان، ثم أتبع بذكر الأنعام التي هي أشد خلقا من خلق الإنسان "وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا"، وفي سياق التفكر يأتي ذكر الإنسان أولا مصحوبا بذكر الأنعام بعده، وقد ورد هذا الترتيب في سورة يونس أيضا "مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ"(يونس:٢٤)، فالتقديم لأفضلية الجنس والنوع حتى إذا عطل الإنسان حاسة التفكر التحق بالمرتبة التالية المتسفلة(الأنعام)؛ ولذلك تقدم ذكر الخلق على المخلوقات"خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ... خَلَقَ الإِنسَانَ" (النحل٣ : ٤)، أما (الأنعام) فتقدمت في الذكر عن الخلق "وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا" للاهتمام بها لعجيب أمرها وتعدد منافعها.

مفتتح السورة إنعام من الله ـ عز وجل ـ على خلقه بأنه خلقهم ثم وفر لهم سبل راحتهم ونفعهم وعيشهم، فإنزال الماء أية قدرة، وكونه من السماء تشريفا ومباركة له أي: لا حيلة لكم في إنزاله أو حبسه بل ينزله الله ـ عزوجل ـ منعما عليكم، وهي عملية خفية باطنية لا تدركونها ولكنكم ترون آثارها فأنتم في حاجة دائمة لمدد الله ـ عزوجل وعونه؛ ولذلك قُصر الإنزال عليه تعالى، قصر صفة على موصوف، طريقه تعريف الطرفين قصرا حقيقيا بدليل "سبحانه وتعالى عما يشركون"، وإسناد الخلق إلى الله ـ عزوجل ـ متكررا ثلاث مرات، يقرر ويؤكد كون الضمير هنا للقصر والتفخيم والتعظيم، وإلزام بالحجة على المشركين، ثم قسمت المنافع التي أنزل من أجلها الماء "شراب وشجر"، ويلحظ أن الملائكة تنزل بالروح من الأمر وكذلك الماء منزل، وهذا تفسير قوله: "ألا له الخلق والأمر"، فهما لا يكونان إلا بإذن الله ـ تعالى ـ فهو الذي يعطي الأمر بنزول الماء، ولكنه قدم نزول الملائكة بالروح في الترتيب الذكري قبل نزول الماء؛ لأن الامتثال للأمر أصل مهم وهو الجالب للرزق لكونه متسببا عن التوحيد وإتقاء النار " يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ" (النحل: ٢) وكون الماء وسيلة للبقاء في الحياة التي نحيا فيها للتوحيد وإتقاء غضب الله وسخطه وإشراك غيره معه، ومن كمال الإنعام بالخلق قال تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ"(النحل: ١٠) اتحد العنصر الحي الموجِد للحياة وهو عنصر الماء، ولكن لم يذكر الماء صراحة في قوله: "مِنْ نُطْفَةٍ" كما في قوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا" (الفرقان:٥٤) ليذكّر الإنسان دائما بضعفه وعجزه فيقرّ لخالقه بالوحدانية والقدرة، فتعددت مظاهر القدرة فيما يحدث من إنزال الماء من السماء، فجميع المخلوقات وجدت من واحد هو الماء، ولا اختلاف في الغاية من خلقها، فجميعها مسبح بحمد الله عابد له، فالماء واحد والمنبَت به كثير وآثار ذلك كله محسوس مرئي للعيان مختلف أكله ولونه .

وفي مقام إظهار المنّ والإنعام على العباد تكرر الجار والمجرور "لكم" سبع مرات[١]، وفي تقديمه في قوله: "ينبت لكم به" و"لكم منه شراب" لتوكيد وتقرير الإنعام والفضل من الله ـ عزوجل ـ على عباده، وتقرير أهمية هذا الماء المُنعَم به على العباد وأنه نزل لأجلكم ولمنفعتكم أنتم لا هو،فـ(اللام) في(لكم) تمليك وانتفاع وخصوصية وإنعام مع تقرير وتخصيص تفرد المولى ـ عزوجل ـ بالإنزال، وتبدو القدرة الإلهية في كون الماء المنزل واحدا ولكنه قوام حياة الكائن الحي بشقيها من مشرب ومأكل، ووصف الماء بـ"شراب" لكون الكائن الحي لا يستطيع أن يحيا بدونه، وأفرده لكونه أصل كل المشروبات ولذا كانت الإبانة بالمصدر "شراب"، و"منه" التبعيضية التجزيئية التأصيلية أي: منه هو بنفسه ومنه ما يدمج ويخلط معه ولكن ذلك أُضمر ولم يذكر؛ لكون المشروبات قليلة لا

---

[١] – الأيات ٥، ٦، ٩: ١٣ من سورة النحل

تتنوع تنوع المأكول الذي فصّله وخصصه بعد عمومه في قوله تعالى:"ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل.." استأنفت الأية وفصلت عما قبلها؛ لأن الماء ليس له قدرة على إنبات الزرع بل هو سببه والإنبات لمختلف الزروع والثمار عظيم قدرة وتجلي حكمة؛ ولذلك بدئ به مستأنفا مسندا لخالق قدير، فهي عملية معقدة خفية في باطن الأرض يُرى أثرها ظاهرا بعد بروز النبت على سطح الأرض، وهذا يستدعي التفكر والتأمل في معطيات الكون، كما يستدعي التفكر في موقف الإنسان حيال هذه المعطيات، فهو عاجز حيال تدبيرها لأنه تعجزه الأسباب ولكنه مستخدم ومنتفع .

وقدم الزرع لكونه أعم وأشمل لكل ما ينبت من الأرض بسبب الماء وهو أغلب ما يتعايش به الناس في مأكلهم ومشربهم على اختلاف وقت نموه، ثم ثنى بالزيتون تخصيص بعد ذكر العام ، ثم ثلث بالنخيل وشفع بالأعناب ثم عمم بعد التخصيص ومن كل الثمرات، فيفهم من هذا أن الزرع غير الفواكه، وأن الزيتون والنخيل والأعناب مختلفون في الشكل والتخزين، فهذه الثلاث المذكورة تنبت مرة واحدة في السنة ويحتفظ بها لمدد طويلة زيتون ودهنه وكذلك التمر والزبيب (الأعناب) وما عدا ذلك فهو ينمو لوقت حصاده ولا يحتفظ به، واقتران النخيل والأعناب مجتمعين كثير في القرآن الكريم، ثم ذيّل بقوله: "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" إفراد (الأية) مناسب لوحدة الماء، لما كانت عملية الإنبات تحدث طبعيا بقدرة الله وأمره في لطف وخفاء يرى أثره واضحا على النبات مختلفا حصاده وإثماره لم يلتفت الناس إلى هذه القدرة البارعة الفائقة، وحسبوا أن ذلك يحدث بسبب الماء فقط فنُبهوا إلى القدرة بإنزال الماء من السماء وما يلي ذلك من آثار تترتب على إنزال الماء من شراب وشجر، أي: حتى ما تشربون وتأكلون يستدعي التفكر في أصله ويتطلبه، فهل تتفكرون في هذه النعم وتأدون شكرها ولا تشركون معه غيره إذا تقرر عندكم أن له الخلق والأمر؟ ووردت الفواصل اللاحقة لهذه الأية "يعقلون" "يذكرون" "تشكرون" فظهور آثار الماء في عمليات لطيفة خفية يشاكلها ويناسبها الختم بالتفكر وإعمال النظر والتأمل، أما الأيات الدالة الظاهرة من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم فذيلت بـ"يعقلون" تعريض بكونهم أنعام؛ لأن منكرها بمنزلة من لا يعقل، وهذا التذييل وما قبله وما بعده يعرّض بهم إذ لم يعملوا هذه القدرات فهم بمنزلة الأنعام لا يتفكرون ولا يعقلون ولا يذكرون، فتدرجت العمليات العقلية من الأعلى إلى الأقل، فالتفكر أمّ كل العمليات العقلية التي تؤدي إلى العلم اليقيني؛ لأنه يحتاج إلى النظر إلى الظواهر والبواطن، فالله . عزوجل . لا يرضى لعباده كفر النعم فجعلهم متفكرين ولما أغفلوا ذلك جعلهم يعقلون، ولما لم يعقلوا ذكّرهم.

وأكد الخطاب بـ"إن" و"اللام"؛ لأن المقام إنكار والسياق من أول السورة ينفي الشريك فكان المقتضى هنا التوكيد بأكثر من مؤكد؛ لأن المقام يستدعيه ويطلبه، فهؤلاء القوم الذين ألقي إليهم الخطاب لا تساعدهم أنفسهم على التفكر لعدم الباعث والمحرك، فالتفكر ليس

رائجا عنهم فلو كان معروفا ما قلدوا آباءهم واقتدوا آثارهم، فـ"الخبر بأمر يبعد مثله في الظن، ولشيء قد جرت عادة الناس بخلافه"[(١)]، والإبانة بالفعل المضارع "يتفكرون" لتجدد التفكر وحدوثه شيئا فشيئا متجددا بتجدد نزول الماء والإنبات، وفيه تعريض وإيلام وتوبيخ لهم؛ لأنهم لم ولن يستطيعوا أن يحاكوا هذه المخلوقات أو يكونوا سببا في نباتها؛ ولذلك جاءت الأيات"أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ"(النحل:١٧)، و"وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ"(النحل ٢٠ :٢١) تعقيبا على هذه الأيات إيلاما لهم وتذكيرا بضعفهم وإقرارا بخطئهم؛ لأن الله . عزوجل . عرّض بهم ووجه إليهم اللوم والتقصير وحثهم ونبههم إلى ما هو موجود لديهم فأمرهم بالتأمل والتفكر وذكّرهم بأسلوب كنائي، ثم ترقى في إيلامهم لإعراضهم فاستنفرهم بأساليب الاستفهام الطلبية الإنكارية "أفمن يخلق.."، وبلغ الإيلام ذروته والتنبيه حدته فشُبهوا بالأموات، فهذه الأيات تصريح بما جاء ضمنا في قوله: "لقوم يتفكرون".

فإيقاع الأيات هادئ يوجه ويؤثر ويستجيش العقل والضمير بنبرة هادئة تخاطب الحواس والعقل الواعي، تخاطب العين لترى، والأذن لتسمع، والوجدان ليتأثر والعقل ليتدبر، فتتوجه الحواس إلى أيات الله في الكون.

<u>الأية الثالثة:</u>

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل: ٤٣، ٤٤)

ألقى الكلام مؤكدا مقصورا قصرا حقيقيا قطعيا لإثبات كون الرسل عليهم السلام جميعا بشرا ولكنهم "نوحي إليهم"، وهو مناسب لقوله تعالى:"وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ"(الأنعام:٨)، والخطاب هنا لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . في مقام تسليته، والإنعام عليه بتبليغ الناس، و(الناس) اسم جنس فيشمل الإنسان الحي الناطق المكلف المفكر؛ ولذلك أُمر النبي صلى الله عليه وسلم ببيان وكشف هذا الذكر ليرجى منهم تفكر؛ لأن الإنسان بطبيعته وفطرته يفكر فيما يلقى إليه، فخاطب الله . عز وجل . في هذا المقام هذه الفطرة، ولم يعرض بغيرهم كما في سياق الأيات التي ذكر فيها كلمة (قوم).

ونكر"رجالا" للتعظيم والتكثير أي: رجالا عظماء كثر، وهم أعظم من أن يُعيَنوا ويُعرَفوا، وكان الخطاب مفردا لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . "قبلك" ثم انتقل إلى الجمع "فسئلوا" لأن المشركين تحججوا وقالوا: إشراكنا وأفعالنا (التحريم والتحليل) مشيئة الله"وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ"(النحل:٣٥) فألجأهم الله عز وجل للتاريخ والتذكر "فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا"(النحل:٣٦) فأرشدهم ووجههم أن

[(١)] – دلائل الإعجاز ص ١٢٥

يسيروا في الأرض فيروا رؤيا عيان آثار المكذبين فيعتبروا ويتعظوا ويتفكروا بما كان من حالهم ولم يجبرهم، وسُلب عنهم النظر والفكر والتدبر والاعتبار لكونهم تابعين مقلدين لما وجدوا عليه ءاباءهم، فأمرهم على سبيل إلجاء الخصم لما يعرفه ويميل إليه بسؤال أهل الذكر ممن لديهم خبر من سبقهم ممن عبدوا الله على الحنيفية، وخصص المفعول بـ"أهل الذكر" لكونهم لا يتألون على الله ولا يكذبون عليه، وهم على ذكر دائم فلا يغفلون أو ينسون، وقوله:"إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" تكميل حسن للتسجيل على المعاند العلم والمعرفة بشأن من سبق ولكنه ألغى عقله وفكره.

قوله تعالى: "وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" أي: لعلهم يكونون في حال يُرجى معها التفكر فقد سبقهم أمم أرسل إليهم رسل بالبينات والزبر، وبلغوا ما أمّنهم عليه ربهم، ولكنهم لم يصدقوهم، ولما كانوا أهل تكذيب وإنكار ألجأهم الله تعالى إلى عقولهم لا إلى الوحي القاطع "الذكر" بدلالة النبوة، فأمرهم بالسير في الأرض والنظر في أحوال من سبق من الأمم وكيف كانت عاقبتهم بسبب تكذيبهم، وها أنتم لم يكلكم الله إلى عقولكم الناقصة وأحلامكم المتسفهة بل بعث إليكم رسولا وأنزل إليه الذكر ليبين ويوضح لكم ما نزل إليكم من أياته، فإذا كان الأمر على ما نزل إليكم وما وعيتم ورأيتم من حال من سبقكم رؤى عيان لا سبيل إلى إنكارها فهل تفكرتم في حال أنفسكم كيلا يكون مصيركم مصيرهم، أو تفكرتم في الذكر المنزل إليكم وتبصرتم في أياته وما يأمر به وينهى عنه فتعلموا أنه موافق للفطرة والصواب والمرضي من الأخلاق التي اعتدتم عليها وتنافستم في التخلق بها فتذعنوا له مختارين عن قناعة يسوقها إليكم الفكر فيه، فحذف المفعول هنا يفتح آفاقا واسعة للفكر ولا يكبح لجامه أن ينطلق إلى تقدير ما أمكن أن يحتمله المقام والسياق، كما أن أسلوب الرجاء "لعلهم" فيه أن باب التوبة والرجوع إلى الله . تعالى . يفتح لمن أقبل وتاب، فالرجاء حث ودفع واستنهاض وتنبيه وبعث فكر ونظر وتأمل لعواقب الأمور بدليل إتباع الفكر بأيات أنواع العذاب التي تحيط بماكري السيئات، وردع وإنكار لتحجر عقولهم ولعدم عملها بمقتضى مقدرتها، والتعبير بالفعل "يتفكرون" المسند لضمير الغيبة مع تقدم ما يعود إليه الضمير وهو (الناس) ليعم الناس في جميع الأزمان، فباب التفكر مفتوح وليس مقيدا، كما أنه دعوة لنبذ التقليد وإعمال العقل.

عبر البيان القرآني بـ"لقوم يتفكرون" (النحل:١١) ثم عبر بـ"ولعلهم يتفكرون"(النحل:٤٤)، وفي سورة البقرة " كَذَٰلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" (البقرة:٢١٩ ،٢٦٦)، في الأية الأولى تعريض ولوم وتوبيخ لأنهم لا يتفكرون مع أنهم أصحاب عقول ونهى ولكنهم اعتادوا وجود دلائل القدرة أمامهم مسخرة لنفعهم فانصرفوا عن التفكير فيها، أما الأية الثانية فوجود العطف يقتضي المغايرة، فالجملة المعطوفة "ولعلهم يتفكرون" خرجت مخرج السخرية والتهكم بهؤلاء بدليل شفع هذه الأية بأساليب الاستفهام الإنكارية المتضمنة أنواع العذاب؛ لأن عدم تفكرهم لا عذر لهم فيه؛

لمجئ الرسل بالذكر مُبينًا، تعبير بالخبر في موضع الإنشاء أي: تفكروا، فالواو للاستئناف "وقد يكون في الاستئناف حث على الالتزام بالمستأنف والترغيب فيه بتعظيمه في عين المخاطب")(١) ، أما الأية الثالثة فالبيان يقود للتفكر وعلة له؛ لذا لم يعطف (لعلكم) عليه.

الأية الرابعة:

قال تعالى: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(النحل:٦٨ :٦٩)

لنأخذ العبرة والعظة من النحلة فإذا كانت حشرة أوحي لها فامتثلت ورأيتم رؤيا عيان آثار امتثالها وانقيادها للوحي متمثلا في عسل مختلف الألوان، فكيف تستنكفون أن يوحي الله ـ عز وجل ـ إلى إنسان منكم مكث فيكم عمرا صادقا أمينا؟ فالكلام تعريض بالمشركين وتسفيه لأحلامهم، وإذا كان الوحي إلى النحلة سرا خفيا إلهاما فلماذا لم تتساءلوا من الذي علمها وأوحى إليها؟ فالذي أوحى إلى نحلة أوحى إلى الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أليس في الإيحاء إلى النحل مدعاة للتأمل والتفكر والتدبر؟ فالإبانة باللفظ (أوحى) هو المرتكز في الأية الكريمة مستعار وحقيقته:ألهم، والتعبير به في جانب النحل من الفرائد القرآنية، ولو كان الوحي جهرا لانتهجته جميع الحشرات وشاركت النحل فيه، لكن الوحي سر خاص بها دون ما سواها لصلاحها له، وكذلك كان الوحي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرا لا يراه إلا هو لصلاحه لهذا الوحي دون غيره من بني ءادم فلماذا تنكرون الوحي للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا تنكرونه للنحل ؟!

النحلة حشرة، والحشرات عادة ما تُحتقر، وتتخذ أحقر الأماكن لتبيض وتفرخ فيها، ولكن النحلة كرمت بوحي الله لها واختيار بيوتها ومأكلها وهي منقادة مطيعة، فهي في هذه السورة رمز للطاعة وتعريض بغيرها ممن لا يؤمن بالله بدليل قوله تعالى: "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ"(النحل:٤٩)، واستفاضت الأيات الكريمات تذكر جحود الإنسان وكفره أمر ربه وما ءاتاه، فالنحلة حشرة ضعيفة ألهمها ربها باتخاذ بيوت وأكل الثمرات وسلوك السبل الذلول فانقادت وأطاعت جدة مجتهدة ناصبة لتخرج للبشرية الشفاء، والفعل"كلي" مستعار لامتصاص الرحيق، والأمر بالأكل من جميع أنواع الثمار، والثمار أداة التفكه، وهي ما يشتهيه الإنسان ويتخيره، وقوله:" فيه شفاء" مفارقة تدل على مقدرة وعجيب صنعة، فالإخراج فيه شفاء؛ فالنحلة مأمورة موح لها، فماذا فعلت أنت أيها المعاند الجاحد؟ فبرغم كونك مسخرا لك ما في البر والبحر إلا أنك لم تقدم النفع، بل عجزت عن الشكر والطاعة لمسخر كل شيء لخدمتك، وأراك ـ جد شأنه ـ الملك والملكوت، وأراك تذليل

---

١. الواو ومواقعها في النظم القرآني .د. محمد الأمين الخضري، ص٤٣٩، ط١، مكتبة وهبة ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

الكائنات لخدمتك، وتسخير جميع المخلوقات لتساعدك على آداء واجب الحمد والشكر للمنعم بإفضاله وكرمه وستره، وأراك بديع صنعه وإتقانه، ولكنك كافر جاحد تعبد من لا يستطيع نفع نفسه فضلا عن ضرها، أحببت الحياة الدنيا وفضلتها على الآخرة، فانظر وتفكر واعتبر بحال حشرة ضعيفة وانظر لحال تعاونها مع بعضها في خليتها للنفع والبناء والتعمير؛ لأنها سلكت "سبل ربك" فاكتسبت السبل تشريفا لإضافتها لاسم الجلالة، فما دام ربها الذي هو متكفل يأمرها فلابد من الطاعة والامتثال، وهذا يقتضي التفكر والتدبر من أولي الفكر، والاعتبار بحال النحل الذي لا يعقل أحرى من قوم لا يتفكرون، فقوله:(قوم): تعريض وتشهير بغفلة وجهل من لا يعتبر؛ ولذلك نكرهم، وأفاد تنوين التنكير أيضا كونهم نوعا غير داخل في عداد البشر أو نوع غير معهود لأنهم لا يتفكرون فيما حولهم وفيما فيه صلاحهم، فذكر أية النحلة في هذا المقام للاعتبار والاتعاظ والاقتداء، فالنحلة أمرت بسلوك سبل ربها فسلكت؛ لأنها امتثلت الحكمة البالغة في سلوك هذه السبل بصعوبتها وحزونتها وأدركت أنها سبل الله فأذعنت طائعة، فالنحلة رمز الطاعة، أما الإنسان المعاند إذا قيل له ماذا أنزل ربك فيقول:" قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ"(النحل: ٢٤)، وخصصت أنثى النحل بالذكر فوجه إليها الخطاب(اتخذي، كلي، فاسلكي)مع أنها داخلة في العام "النحل"، والنحل اسم جنس جمعي يعم الذكر والأنثى، فهي رمز آخر لزيف معتقد المشركين وخطأهم "وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ"(النحل:٦٢) وقبل هذه الأية قص القرآن عنهم حال اغتمامهم بقدوم الأنثى؛ لأن وفادتها عليهم أمر غير مرغوب فيه، وبشارة بما لا يسر في قوله:" وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ"(النحل:٥٨)، فأنصفها الله عز وجل بقوله:"مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"(النحل: ٩٧) فإذا كان حالكم من بشارة الأنثى هكذا فلماذا تجعلونها لله؟! فهذه الأحوال المتضاربة والتخبط العقدي يستدعي تفكرا ومراجعة ونظرا في معتقداتكم.

والتمثيل بالنحل من الفرائد القرآنية، فالنحل لم يذكر إلا مرة واحدة في القرآن الكريم في هذه السورة، وذكر الوحي للنحلة هنا مثالا للفظ المعنى المراد، فالكفار يستنكرون أن يوحى إلى رجل منهم، فالوحي كان بأمر الله، والإيحاء يستدعي موحيا إليه، وخروج العسل من بطون النحل يدل على قدرة الموحي وطاعة المأمور، فالاتخاذ والأكل والسلوك كانوا بوحي مطاع، وذكر الوحي للنحلة مع ذكر الأوامر التي وجهت إليها تهذيب وتأديب للإنسان، فلم يوجه الله عز وجل إليها نداء كما وجه للأرض والسماء والجبال في سور مختلفة من الكتاب العزيز .

نظرة في ختم سورة النحل نجد أنها ختمت بمثال فرد من الأنبياء وهو سيدنا إبراهيم . عليه السلام . فهو أمة، وأمر رسولنا الكريم . صلى الله عليه وسلم . باتباعه لقنوته وحنيفيته وشكره، ثم أمر بالدعاء إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فسبيل الله . عزوجل . يتطلب

حكمة، وهذه الحكمة تتعلم من سلوك النحلة سبل ربها؛ ولذلك سميت السورة بـ"النحل" رغم ما ورد فيها من كائنات ومخلوقات كثيرة سُخرت للإنسان بها عبر وعظات تدل على خالق قادر عظيم، ولكن لما كان للنحل دقيق الحكمة وعجيب الأمر وبديعه خصصت بالذكر وأُمر بالتفكر في أحوالها.

الأية الخامسة:

قال تعالى:"وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(الروم:٢١)

هذا المقام الأول لمجيء التفكر في سياق الأزواج، فالسياقات السابقة جاء التفكر في سياق خلق السماوات والأرض وما أنعم الله به على الإنسان من زورع وثمار مختلفة بسبب الماء النازل من السماء، والسياق هنا مختلف ولكنه مرتبط أيضا بأية الله الكونية في خلق السماوات والأرض ففي قوله:"أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ"(الروم: ٨) انشغلت النفس عن التفكر وكان هذا مدعاة للإنكار والتوبيخ بأسلوب الاستفهام الإنكاري "أولم يتفكروا.." أي: ينبغي أن يتفكروا؛ لتوبيخهم على التقصير والغفلة، فالدنيا التي انهمكوا فيها شغلتهم عن النظر في خلق الكون، وألهتهم عن الآخرة فظنوا أنهم غير مبعوثين ولم يعتبروا بحال الأمم من قبلهم بل اكتفوا بتسيير أمور معاشهم الظاهرة، ونسوا معادهم وكذبوا به، حتى أنهم منعوا أنفسهم النظر في آثار من سبقهم، "والاستفهام الإنكاري وسيلة محاجة وإقناع ويشمل ذلك نوعين من الأدلة العقلية والأدلة الحسية. فالأدلة الحسية تلفت الأنظار إلى الظواهر الكونية لاستخراج العبرة منها والاستدلال على قدرة الله سبحانه وتعالى......أما الأدلة العقلية فتقوم على إنكار التقاء أمرين متعارضين بحكم البديهة إذ لا يمكن أن يحكم العقل بالتقائهما"[١].

ربط ﷻ بين الأيات الكونية المشاهدة والأمور الغيبية(البعث) -كما في سورة الرعد- فذكرهم وحثهم على النظر والتفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما، فهل يعجز خالقهما عن البعث والإعادة، فجُعل ما هو موجود مشاهد سبيل لإدراك ووعي ما هو غيبي، وقد أمروا بالتفكر في حدود ما تنفذ إليه طاقاتهم البشرية المحدودة مما هو مشاهد بالعيان وتصل إليه أبصارهم الحسيرة؛ لأنهم لم يستطيعوا إدراك الخلق الأول للسماوات والأرض على حقيقته وكيفيته؛ ولذلك رحمهم المولى جل جلاله وأمرهم بإعمال العقل والخاطر فيما هو موجود مشاهد وعندما تصل عقولهم إلى العجز عن إدراك سر القدرة والعظمة يُقرّون بالعجز لأنفسهم ويعلمون أن هناك خالقا قادرا مريدا يُمتثَل لأمره ويُخضع لمشيئته.

والتفكر في النفس لتقارن بينها وبين غيرها من المخلوقات التي خلقها المولى . عز وجل . بالحق، فإذا كانت هذه المخلوقات الكونية خلقت

---

١. البيان في روائع القرآن.د.تمام حسان، ٢/٢١١: ٢١٢ ، ط٢، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣ م

لهدف ومنفعة وما خلقت باطلا فأولى بالإنسان العاقل المفكر أن يتفكر في الغاية من وجوده وما هو عليه من ضلال وغفلة، وينظر لمراحل نموه وتصرم الأحقاب وانتهاء الآجال، فالمطابقة بين "الحياة الدنيا والآخرة" في قوله: "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"(الروم:٧) تشير إلى ابتداء الآجال وانتهائها، ألم ينظروا في الدورة الحياتية للإنسان وسرعة انقضاء أجله، وتصرم الأحقاب والأزمان، ولكنهم كما أكد البيان القرآني "وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ"، ويُتبع الاستفهام بآخر" أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ"(الروم: ٩) والنظر هنا نظر اعتبار وإدراك وتأمل، والاستفهام تهديد وتوبيخ وتقريع وإنكار؛ لقصر نظرهم عن الاعتبار بحال من سبقهم بل هم مقصورون على النظر والإتقان والتخيل لأمور دنياهم ومعاشهم، وقد انتقلت الأيات إلى ذكر دلائل أخرى من دلائل قدرته تعالى وعظمته بذكر إخراج الحي من الميت، والميت من الحي، وخروج الناس بعد الموت ليس مستبعدا مستعظما بدليل أن الله . تعالى . بدأ خلقكم من تراب لم تكونوا قبله شيئا، فخلقكم وصوركم من الأرض التي تخرجون منها وفيها تعودون، فالبعث أهون لأن ابتداء الخلق من تراب جامد لا روح فيه ولا حياة وبفضل قدرته تعالى وتسويته ونفخ الروح فيكم أصبحتم بشرا كاملي الهيئة والصورة وانتشرت ذراريكم في الأرض وعمرتموها، ومن بديع القدرة والصنعة خلق من النفس الواحدة زوجها لتسكن وتأنس وتنعم بها

وهذه النفس خلقت من ضلع سيدنا آدم . عليه السلام . لتكون لصيقة به أقرب إليه، عندما يفكر في إيذائها فيتذكر قوله تعالى: "مِنْ أَنْفُسِكُمْ"، وقوله:"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" إنكار لحال أولئك الذين أهملوا النظر والاعتبار في دلائل أيات الله وقدرته، وتعريض بهم فجُعلوا بمنزلة مَن لا يتفكر "فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِأَيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ"(الروم٥٢ :٥٣) فهم موتى صم عمي، عطلوا الفكر والنظر، وأصبحوا يتزاوجون ويتناسلون كما تتناسل الأنعام دون أدنى فكر واعتبار لهذه العلاقة التي سببها الله من خلق الزوج من النفس فلإهمالهم صاروا في حيز الإنكار بتنزيلهم منزلة المنكر، وعبر البيان القرآني بالجمع "الأيات"في موضع المفرد رغم مجيء"من" في أول الأية للتبعيض؛ لتعدد النعم والمنح وعجائب القدرة في خلق الزوج من النفس، فكون الزوج من النفس آلف وأوفق؛ لأن النفس تميل إلى ما يشبهها وتألفه، وكذلك فإن النفس أصون وأحفظ لما هو مخلوق منها، كما أنه راعى استمرار الحفظ والصون بجعل الزوج سكنا، والسكن هنا مستعار لهدوء النفس واطمئنانها وائتناسها والميل إليها، وجعل ما بينهما من علاقة أسمى معاني الحب والكرامة والرحمة والتواد والتعاطف؛ ولذلك جمعت (أيات) ولم تجعل أية واحدة، وتنكيرها للتعميم فإن كل أية سواء أكانت حسية أو عقلية مقصودة، فالاعتبار هنا مدمج فيه الامتنان بالنعمة والنفع، فخلق الزوج من النفس والسكون

إليها ووجود المودة والرحمة أية عظيمة لا يدركها إلا متفكر.

وحذف مفعول التفكر "يتفكرون" لأن المراد إثبات التفكر لهؤلاء القوم وصدوره منهم، فالغرض بيان التفكر نفسه وأن يصدر منهم وأن يكون من شأنهم، ولو ذُكر المفعول وعُدِّي الفعل توهم ما هو خلاف الغرض، فالغرض إثبات وجود التفكر وحدوثه، ولو ذكر المفعول جاز أن يتوهم أنه لم يثبت لهم تفكر بل الذي عناه أن يبين المتفكر فيه.

الأية السادسة:

قال تعالى:"اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(الزمر:٤٢)

مناسبة سورة الزمر لسورة الروم:

جاءت سورة "الزمر" تالية لسورة "الروم" في الحديث عن التفكر وبينهما تناسب في المعاني والموضوعات، فقوله تعالى:"خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا"(الزمر:٦) مناسب لقوله:"وَمِنْ أَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا" (الروم:٢١)، وفي سورة "الروم" يكاد يكون محور السورة تكرر الحديث عن بدء الخلق ثم إعادته)(١)، وكذلك تحدثت سورة "الزمر" عن الموت والبعث ولكن في سياق آخر، وفُصلت الأيات وخصصت بالذكر وتنوعت مظاهرها وتعددت عبر أيات السورة نصا صريحا، فورد قوله:"ومن أياته" وكلمة"أيات" ثماني مرات، ورغم تعدد الأيات وتنوعها جادلوا وأنكروا قال تعالى:"وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِأَيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ" (الروم:٥٨) فالأيات دلائل لهؤلاء القوم الذين لا يريدون أن يتفكروا ويعملوا عقولهم وضربت لهم الأمثال متنوعة حسية وعقلية ولكنهم لا يوقنون، فجاءت الأيات تقوية للرسل وترقت تبعا لحال المخاطبين المشركين، وفي سورة "الزمر" تكرر ذكر إحياء الله تعالى للأرض بعد موتها مرارا في السورة الكريمة، خاصة وأن القرآن الكريم نزل في الجزيرة العربية وهي أرض صحراوية جبلية شديدة القيظ والحرارة وبفضل الله تعالى ينزل السماء فتختزنها الأرض، ثم تنبت الزرع والشجر الطبعي دون تدخل من الإنسان بحرث أو زرع وفي هذا من القدرة الباهرة على عجيب صنع الله وإنبات الحي من الميت وإخراجه منه، ولما تكرر رؤية هذا وأصبح مشاهدا معلوما لديهم لم يتفطنوا إلى عجيب الصنعة وسر الحكمة وعظم القدرة؛ ولذلك قرر الله ﷻ عدم اهتدائهم واعتبارهم بالنظر في السماوات والأرض "قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الأَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ" (يونس:١٠١) ألجأهم إلى حال مألوفة لديهم يرونها ويعايشونها ولكنهم لا يلتفتون إلى مالكها ومدبرها "وَمِنْ أَيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ"(الروم:٢٣) ففي مقام المنة والإنعام جاء البيان القرآني "منامكم" والنوم راحة للأبدان،

١- ينظر الأيات رقم١١، ١٩، ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٤٠، ٥٠ من سورة الروم.

وفي سورة الزمر عبر أيضا بالمنام ولكن في سياق الحديث عن الوفاة:"اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا"، لما كان البعث مما جدوا في إنكاره وأبطلوا كونه حقا مُثِّل طريق البعث بعد الموت في صورة مشاهدة متحققة، فابتدأ البيان القرآني واستأنف استئنافا جديدا أريد تقريره وتثبيته وإسناده إلى الله تعالى إسنادا جديدا "الله يتوفى..."؛ ولذلك عبر بالاسم المظهر "الله" بعد المضمر "إِنَّا" في قوله: "إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ"(الزمر:٤١)، وتقدمت هذه الجملة على ذكر إرسال الأنفس التي لم يقض عليها الموت؛ لتيئيس الكفار وتقرير أن جميع الأنفس زائلة لا محالة، وتضييق الخناق عليهم بما عاصروه وشاهدوه، فالكل يُتوفى ولكل موعد؛ ولذلك تقدم اسم الجلالة على المسند الفعلي "يتوفى" لتقريره وتأكيده وإثباته في قلوب المنكرين ليقع ذكره أولا وابتداء في سمع الذي تكلم ابتداء أولا، فالقصد إلى الفاعل وهو اسم الجلالة، وتحقيق معنى البعث بعد الإماتة له ﷻ لأنهم سئلوا عن خلق السماوات والأرض "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ"(الزمر:٣٨) وهو مما لم يشاهدونه فأقروا وأجابوا إجابة مقررة "لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" وهذه معرفة إقرار يشترك فيها جميع الناس.

والتعبير بالاسم الظاهر إبراز لعظيم القدرة فكما أن رسول الله. صلى الله عليه وسلم. ليس وكيلا عليهم، ولا قادرا على الهداية والإضلال، وليس في وسعه أن يفعلهما لأنه بشر، انتقلت الأية الثانية لإثبات هذه القدرة إلى المولى عزوجل بالاسم الظاهر (الله)، فهي قدرة عظيمة لتمكنها من فعل الضدين(يمسك ويرسل) وتصريفهما بزيادة فعل وسلبه عن الآخر في نفس واحدة من إماتة وإحياء، فالقادر المختار هو المستطيع للشيء وضده عن اختيار وتصرف، وكون الفعل الواحد له مظاهر عدة هذه قدرة تتطلب تفكر وتدبر وتأمل في الأحوال المختلفة التي يمر بها نوم الإنسان ويقظته في يوم واحد، يقول الإمام "البقاعي": "يتفكرون أي في عظمة هذا التدبير يعلم به عظمة الله، وذلك أن النفس جوهر روحانية في التعلق بالبدن ثلاث حالات: إحداها: أن يقع ضوء النفس على البدن كله ظاهرا وباطنا، وذلك هو الحياة مع اليقظة، وثانيتها: انقطاع ضوء النفس عن البدن ظاهرا لا باطنا، وذلك بالنوم، وثالثها: انقطاع ذلك ظاهرا وباطنا وهو بالموت، فالموت والنوم من من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام، والنوم انقطاع ناقص، فلا يقدر على إيجاده شيء واحد على نوعين، ثم يجعلهما في شيء واحد على التعاقب ويفصل كلا منهما من الآخر إلا هو سبحانه، وكما قدر على إنهاء الكبرى بمثل ذلك")[١].

والمقدرة على التوفي هي الحجة القاهرة التي خصصها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمقارعة الكافرين ودحضهم، قال تعالى:"قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي

١. نظم الدرر ٥٢٠/١٦

يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"(يونس: ١٠٤) أقام النبي . صلى الله عليه وسلم . الحجة الوحيدة في هذا المقام لإيمانه وعبادته لله وحده بأنه القادر الواحد الذي يتوفى الجميع ولا يستطيع أحد ذلك إلا هو؛ ولذلك خصص هذا الفعل بالذكر دون غيره من الأفعال لبيان السلطة ما دامت أيات السماوات والأرض والنذر لم يفلحوا ولم يستطعيوا إقناعهم بوجود إله واحد مدبر للأمر خالق للكون، ولما يئس من إيمانهم وتفكرهم في أيات الله واعتبارهم بالنذر صرفهم إلى ما لا يستطيعون منه فكاكا وما هو محتوم عليهم وواقع بهم لا محالة إن كنتم في شك فلا أعبد إلا القادر على توفي آجالكم دون قدرة منكم ودفع لما يقع بكم فلهذا قدم اسم الجلالة (الله الذي يتوفاكم) وخصص بالذكر .

ومُثلت صورة الموت والبعث، بالنوم واليقظة، ورُكز في هذا المقام على الفاعل المختار، وحُقق على السامع وأوقع في سمعه أولا أن الوفاة إنما كانت من فعله ﷻ وتمكين ذلك في نفسه، فالاستيقاظ بعث بعد موتة صغرى وكذلك البعث إحياء بعد موات، ولماكان النوم هو الموتة الصغرى "وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا" عطف على "اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ" لأن النوم موت لتعطل الحواس عن الإدراك والوعي والتمييز، و"قضى" هنا تناسب من الفرائد؛ لأن تحيّن الأجل هنا لم يأت جزافا ولكنه قضاء محكم عن حكمة وقدرة وتصرف وعلم.

ثم ختمت الأية الكريمة وذيلت بما انتهت به الأيات السابقة "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" تذييلا يجري مجرى المثل والحكمة فيه من التقريع واللوم ما فيه بدليل شفع الأية بقوله:"أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ"(الزمر:٤٣)، فسُلبت عنهم أولى درجات الإدراك وهي التعقل، ثم توعدوا بالعقاب والخيبة والخذلان، وحُذروا لإعراضهم عن التفكر والنظر في الحال التي تمر بها أنفسهم كل يوم ويمر بها الناس من حولهم وهم معرضون عما فيها من الحكمة والقدرة وعجيب التصرف، وأكد الخبر بـ"إن" لتنزيلهم منزلة المنكرين لهذه الأيات لعدم جريهم في أحوالهم ومعاشهم على مقتضاها، ولتنبيه العقل ليتدبر مقتضيات الأحوال فيختار مصيره، فالأمر موكول إلى تفكرهم وليس إجباريا، وجمُعت الأيات باعتبار تعدد متعلقها، فالموت أية، والنوم أية، وإرسال الأنفس بعد الموت إلى أجل مسمى أية.

الأية السابعة:

قال تعالى: "اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الجاثية١٢ : ١٣)

هناك وحدة موضوعية عامة في الأيات التي ذُيلت بـ(يتفكرون أو تتفكرون) على حسب ورودها في المصحف الشريف فيسبقها حديث عن ءايات الله الكونية المشاهدة، وإنزال الكتاب من عند الله تعالى بالحق وهو من الأمور الغيبية، ولما كانت الطبيعة البشرية عنيدة جاحدة لا تصدق إلا بأدلة مشاهدة وحجج مرئية

ألجأهم الله تعالى إلى التبصر بالحواس فيما يشهد له ﷻ بالتفرد والقدرة، ونَقَل بصيرتهم العمياء إليها، فصرف نظرهم إلى خلق السماوات والأرض، وهما دليلان قاطعان على أن خالقهما متعال عن أن تنال وصفه الظنون والأقلام، وهذا مما يحصل به الاعتبار ويحتاج لطول التفكر وتردد النظر والاعتبار، وهذا الترتيب هو ما افتتحت به سورة "الجاثية" ثم انتقلت إلى الحديث عن خلق الأنفس والدواب، ثم اختلاف الليل والنهار، ثم إحياء الأرض بنزول السماء، ثم تصريف الرياح وكلها ءايات مشاهدة أعاد ﷻ ذكرها على مسامعهم وركز أبصارهم عليها بأدوات التوكيد(إن واللام) في قوله:"إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ"(الجاثية:٣)، وتكرر ذكر كلمة "الأيات" تسع مرات في مدى محدود جدا من الأيات)[١]؛ للتنبيه على الغفلة وانعدام التفكر والتدبر والتأمل في خلق الله، فهؤلاء لو أعملوا عقولهم ونظروا فيما حولهم من مخلوقات لأيقنوا أنها دلائل خالق مصرف مدبر حكيم، فإذا جاءت دعوة الرسل ودُعوا إليها صادفت قلبا وعقلا قابلا للإيمان واليقين، ولكن لما كانت الغفلة ونزعات الهوى والركون إلى الدنيا والاطمئنان بها هو الشغل الشاغل شُوهت الفطرة واضطرب عملها؛ ولذلك أكدت الأيات الكريمة وأعيد تكرار ذكرها بصيغة الجمع.

ثم استأنفت الأيات بذكر مظهر جديد من مظاهر قدرة الله وإنعامه غير ما سبق ذكره في الأيات السابقة قال تعالى:"اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"(الجاثية:١٢) فقد تكرر ذكر الأيات الكونية على الأسماع وعرضها على العقول للتفكر والتأمل والتدبر، وفي مقام المنّ والإنعام ذكرت مظاهر ربوبية الله تعالى جده لعباده، فهو خالقهم ومولاهم ومتكفل برزقهم أيا كانت حالتهم الإيمانية، فاستؤنف وابتدئ ابتداء جديدا "اللَّهُ الَّذِي" فعرف المسند إليه والمسند لقصر هذا الفعل العجيب (التسخير) على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا، قصر قلب، لقلب اعتقاد المشركين أن التسخير تفضل من شركائهم، وذكر منافع البحر ليذكرهم بفضله في مقام الإنعام، فجريان الفلك والابتغاء من فضله خاص بالله ؛ ولذلك ذكر المتعلق "بأمره، من فضله" للإشعار والتذكير أن هذا الفضل والتسخير بأمر الله وحده، فهل يُقابل بالشكر من قِبلكم؟ وتكرار الجار والمجرور "لكم" تذكير وتنبيه ووعيد للذين يتقلبون في نعم الله ولكنهم لا يقابلونها بما ينبغي من الإيمان والشكر، واختتمت الأية بـ"لعلكم تشكرون"؛ فالشكر واجب على الإنسان للمنعِم المتفضل، وعبر بالترجي أي: تكونون في حال يحصل منها الشكر ويُرجَى منكم لأنكم لستم أهله، ولأنكم تعلمون أن الله منعم ولكنكم لم تعملوا بمقتضى علمكم، ولم يوافق حالكم مقتضى ما يكون له من شكر وامتنان، وذكر تسخير البحر قبل تسخير ما في السماوات والأرض ذكر للخاص قبل العام للتعميم والاهتمام بالخاص، وعطفت(الواو) العام السابق "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ" على

---

٢ – سورة الجاثية في الأيات ٣: ١٣

الخاص اللاحق "اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ"؛ لأن تسخير الأرض سابق على تسخير البحر، فالبحر من الأرض، ولكن لما كان تسخير السفن من الأمور العجيبة قُدم في الذكر على العام (الأرض)؛ لأن بيانه أهم والاعتناء به أشد وإن كان البحر داخلا ضمن ما يستدل به على قدرة الله في خلق الأرض، فالبحر عالم مستقل بأحيائه وكائناته في عدم الاحتياج لغيره وأدل على القدرة وأعجب.

الفعل "سخر" له من الدلالات التي تفيض على الأية كلها، فهو يشير إلى الدونية والانقياد والقهر والتذليل[١]، فهو يرمز إلى افتقار الإنسان وعوزه، فهذه الكائنات العظيمة لها من القوة والقدرة ما يفوق قوة الإنسان وقدرته، فلا يستطيع قيادتها وتصريف أمرها "لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ"(غافر:٥٧)، فالكائنات العظام سُخرت لخدمة مَن يعصي الله . عزوجل وقبلت لأنها مأمورة، أما الإنسان فغفل عن طاعة المسخِّر وأعرض، وتكريره (سخر) تكرار تحدٍ ووضع الإنسان في موضع العجز، واللفظ المكرر بؤرة الدلالة وتمركزها، فالكون الهائل العظيم يستتبعه أن يكون مُوجِده أعظم؛ لأنه مسخِّر لكل ما فيه ويستتبع ذلك وجود الشكر واليقين.

هل في مقدور أي إنسان كائنا ما كان أن يفعل كل الأفعال الخارقة السابقة أو يقوم بفعل واحد منها مهما بلغ من القوة والجبروت والعظمة؟ فالحديث هنا إقناع وحجاج بأسلوب هادئ رصين يخاطب العقل ويحركه ليقوم بوظائفه؛ ولذلك اتكأ سيدنا إبراهيم عليه السلام في حجاج من حاجه في ربه على أية كونية واحدة من خلقه، ولم يأمره بخلق مثلها بل بتغيير مسارها، فبهت الذي كفر، كلمة "بهت" تصور زلزلة عقيدة الكافر وبطلان قدرته وإثبات عجزه وضعفه وكفره وتخطئته لمنازعة الخالق المدبر في أمره، ولذلك عندما يسخر المولى . عزوجل . هذه الأجرام العظام بما فيها مما نعلم ومما لا نعلم، فهذا تكريم للإنسان ورفعة لشأنه بتسخير السبل له وتذليلها، وتمييزه بالعقل على سائر الخلق.

وفي الأية تعريض أيضا بذوي العقول من الإنسان، فالجمادات سُخِّرت وخضعت، والأجرام الهائلة العظيمة والدواب الضارية والوحوش جميعها مسخِّر، فما بال الإنسان ذي العقل يتمرد على الطاعة التي تكون بمحض إرادته واختياره؟ فالتفكر هنا ليس قهريا، بل هو واجب فطري على كل ذي عقل وبصيرة، إذا نظر حوله وأحس بعجزه وقلة حيلته، وفقره إلى من يدبر له أمره، واحتياجه إلى جميع الموجودات التي خلقها الله له وسخرها من أجله، هب أيها الإنسان أنك تعيش وحيدا بمعزل عن الكون والموجودات والمسخرات هل تستطيع أن تحيا دون كل هذه المقومات؟ وهب أن كل ما هو مسخر لخدمتك امتنع منك هل لك بقاء في هذه الحياة؟ هنا تتفكر وتحتاج للنظر وترجيعه لتعترف بنقصك وعجزك وتسلم القيادة وتذعن إلى مدبر عظيم خالق مسوس مبدع على غير

١- لسان العرب مادة: سخر.

مثال، وتقر بالضعف والافتقار إلى مالك هذه الأشياء وموجدها وموجدنا نحن.

وعقب الاستدلال بالأيات بالتفكر؛ لأن الفكر هو منبع الإيمان المتقدم ذكره في قوله: "لَأَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . ءَايَاتٌ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ"(الجاثية٣: ٥)كما أن في التفكر دعوة لنبذ التقليد خاصة أن الإيمان بالله وتصديق ما جاء به الرسل من عند ربهم مصحح بدلائل، ومحقق بشواهد، وعبر بالفعل المضارع "يتفكرون" فالتفكر ينطلق من ما هو معلوم إلى معلوم آخر جديد، وليس بتقليد أو اتباع بل ينشأ عنه يقين ومعرفة جديدة من معرفة سابقة عليه، والكفار انسدت أمامهم طرق المعرفة بعائق التقليد وعدم إعمال الفكر؛ لأن إدامة الفكر وممارسته ينتج علما وإذا كانت الدعوة للتفكر في الأمور الكونية وهي معلومة لنستنتج منه بفكرنا معلوما آخر حتى وإن كان غائبا عن أعيننا لكن آثار وجوده ودلائل وحدانيته ملموسة مشاهدة، وإعمال الفكر ينتج عنه خشية وعلم يقيني "وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا"(آل عمران:١٩١) فحصل للمتفكر علم فخشع القلب وغيّر حاله فتبعته أعمال الجوارح.

حينما تتفكر في الكون وفي مظاهره وما يبدو لنا منه بأعيننا المجردة ومقدرتنا المحدودة ونرجع البصر لنتفكر ونتدبر في أيات القرآن الكريم نشعر بالعجز وقلة الحيلة وانعدام المعرفة أمام هذا البحر الزاخر اللجي، يشعر الإنسان بنفسه مكتوف الأيدي، عاجزا قليل الحيلة، قد شلّت قواه العقلية وقدراته المعرفية عن استيعاب حقائق الأشياء وكوامنها الباطنة فإذا كانت هذه المخلوقات المشاهدة تشعرنا بالعجز عن استكناه خصائصها الدفينة ويرجع البصر كليلا حاسرا فماذا عن مبدع هذه الأشياء وموجدها؟ كل هذا يستنبط من قوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ".

المحور الثاني :

أسرار التنوع في فاصلة التفكر

لم تجر الفاصلة القرآنية في أيات التفكر على نسق واحد، ولكنها تنوعت على حسب المقام والسياق، ومن هذه الفواصل المتنوعة ما تكرر لفظه ومعناه رغم اختلاف السورة والمقام، وهو ما يدق فهمه ويغمض معناه يقول العلامة "ابن الأثير": "واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان، وهو دقيق المأخذ"[(١)]، ويقول الشيخ الدكتور."أبو موسى": "تنوع الفواصل في أيات متقاربة العناصر باب من البحث الجليل، ووراءه كثير من أسرار البيان لا تزال مخبوءة، ولا ينهض به مبتدئ"[(٢)] وهذا يستدعي تقسيم هذه الفواصل إلى خمسة أساليب: الأسلوب الأول: "كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"، الثاني: "أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ"، الثالث:"لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"و"وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"، الرابع:"كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"، الخامس:"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ"و"إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ".

الأسلوب الأول: "أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ" ":(البقرة: ٢١٩ ، ٢٦٦)

تكرر أسلوب الإيغال بفلظه ومعناه خاتما للأيتين الواردتين في سورة البقرة مع وحدة السياق الكلي العام للسورة، ووقع آخرا ونهاية، وآخر الكلام يعلق بالأسماع فيبقى أثره طويلا في النفس خاصة إذا كان مستقلا بإفادة مراده عما قبله، والتكرار تشييد وعناية بالسياق التي وردت فيه[(٣)]، ومبالغة في أهمية الموضوعات التي أشارت إليها "كذلك" التي تعود إلى جميع الأيات التي تضمنتها الأيتين الكريمتين وإلى جميع أسئلة السورة الكريمة خاصة أن الحديث في الأيات السابقة والتالية متعلق بالإنفاق والمال، فاسم الإشارة يحضر كل ما مضى من بيان ويصيره في منزلة المشاهد المحسوس[(٤)]، والبُعد في الكاف لرفعة البيان وجلالته لإسناده إلى الله ﷻ .

فأجاب البيان القرآني عن أسئلة الصحابة بإيجاز وشفعه بهذه الفاصلة اعتمادا على فطرة العرب السليمة، فمنهم من ينأى عن إتلاف المال في غير وجهه، ومنهم من لم يتعاط الخمر في الجاهلية لنقاء فطرته، ونقاء الفطرة يترتب عليه صواب التفكير واستقامته، فخاطب المولى عز وجل هذه الفطرة وبعثها من غفلتها، وحثها وذكرها بأسلوب الرجاء "لعلكم" لتتفكر فيما أبانه لهم من أيات يدرك مميزها ما يتعلق بهذا البيان من أمور ترجع إلى الدنيا والآخرة، فالمعاملات المادية التي تتعلق بحق العباد يتهاون الناس فيها، فيهون على المنفق المال فينفقه عبثا في الخمر أوترفا في الميسر أو منًّا في الصدقة فيخاطبهم الذكر الحكيم منبها

١- المثل السائر. ابن الأثير.تح: أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة، ٣/ ٣، دار نهضة مصر.د.ت.

٢- آل حم الجاثية – الأحقاف دراسة في أسرار البيان. د.محمد أبو موسى، ص٦٦، ط١، مكتبة وهبة ١٤٢٢هـ. ٢٠١١م.

٣- ينظر المثل السائر٣/ ٤ وما بعدها

٤- ينظر المطول ص ٧٧

ومقررا فكروا قبل أن تقدموا، والتفكير يقتضي مراجعة الأفكار وتقليبها في العقل وفرض الأسئلة والإجابة عنها يقول الدكتور.زكي نجيب محمود: " هل تدري ما معنى "تفكير" معناه الدقيق مناقشة الإنسان لنفسه، يلقي على نفسه سؤالا ويحاول عنه الجواب؛ فإذا قلت "إني أفكر" كان معنى ذلك على وجه الدقة أني سألت نفسي سؤالا أو أسئلة أحاول عنها الجواب"(١)، والفعل "تتفكرون" من الأفعال المتعدية، ونُزل منزلة اللازم في الأية الثانية؛ لأن المقصود ليس المتفكر فيه وإنما المقصود حصول التفكر منهم، والتدبر والنظر متجددا تفكرا بعد تفكر، وتدبرا بعد تدبر، ونظرا بعد نظر لمعرفة الصواب والوصول إلى يقين الإيمان، فالله ﷻ يريد أن يُسكت الألسنة التي تمنّ بالصدقة وتتفاخر بالبذل والإنفاق والميسر ويقول لهم: اعملوا فكركم وحاوروا أنفسكم قبل أن تسألوا رسولكم، فإن قلوبكم ستفتيكم في هذه الأشياء التي تسألون عنها وتكررون السؤال ولا تتمسكوا بمقولاتكم الفارغة"إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ " (الزخرف:٢٢).

وتكرار هذه الفاصلة بلفظها ومعناها لأن إطار التكرار وسياقه هو السورة بجملتها(٢)، فقد تحدثت السورة الكريمة عن المعاملات المادية بجميع أنواعها حلالها وحرامها، وما يستتبع ذلك من نفقات وصدقة وزكاة ودين، ومقام الأية الأولى متعلق بالخمر والميسر وإنفاق المال، والثانية إتباع الصدقات بالمن والأذى وذهاب أثرها، فالمقامان إتلاف المال في مضرة لا يرجى من ورائها خير؛ ولذلك خاطبهم البيان القرآني بأسلوب الرجاء ليحصل منهم اتقاء وخشية واعمال لنعمة العقل التي عطلت، فقلدوا أفعال من سبق، وتابعوا شهواتهم، وتخلوا عن محمود الأخلاق حين منوا بالعطاء.

<u>الأسلوب الثاني</u>:"أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ" (الأنعام:٥٠)

ابتدأ أسلوب التذييل المؤكد الجاري مجرى المثل والحكمة بأسلوب الاستفهام الإنكاري – وهو عمود المعنى في الفاصلة هنا– المعطوف على الاستفهام السابق "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِير" لتأكيد إنكار أدنى درجات العقل والإدراك والتمييز والتفكر عن الذين كفروا، ولذلك نزُل الفعل "تتفكرون" منزلة اللازم ليسلب عنهم خصيصة الإنسان (التفكير)، ويعرض بهم لشبههم بالأنعام، وهو ردع وزجر وتوبيخ لهم وإنكار أن يكونوا بمثابة من يتأتى منه التفكر لجهلهم "ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه، ويُقلِّبه على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ويبنى عليها نتائجه وأحكامه. وهذه الخصائص فى جملتها تجمعها ملكة الحكم" (٣) فالكائن الذي يستحق أن ينعت بـ"إنسان" هو مَن يعمل عقله في كل ما يلقى إليه وبناء عليه فإنه ينتهج سلوكا يتمثل في الفعل أو الترك، وهؤلاء لم يعملوا عقولا بل

١- أدب المقالة. زكي نجيب محمود، ص١٢٤، ط١م، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧م.

٢- التكرار بلاغة. دإبراهيم الخولي ، ص٧٧، ط٢، دار الأدب الإسلامي١٤٢٥هـ. ٢٠٠٥م.

٣- التكرار فريضة إسلامية ص ١٠

أصدروا أحكاما جزافية على الدعوة ومَن جاء بها، وجادلوه، وكذبوا بالحق لما جاءهم وقالوا:"إِنْ هَذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ" (الأنعام:٢٥)، وقصت السورة حزن الرسول صلى الله عليه وسلم من أقوالهم، فصورت هذه الأية بنغمها المتصاعد وتكرار "لا" و"لكم" وفعل القول، والمدود الصوتية في التلاوة رسول صلى الله عليه وسلم وكأنه يحاورهم وهم يجادلون ويلدون في الخصام، ولما يأس من إقناعهم أنهى حواره معهم بما يسكن نفسه ويلحق العار بهم، فسفههم ووبخهم توبيخا شديدا بنفي العقل عنهم، وقطع التلاوة عند هذه الفاصلة "تتفكرون" مع حذف المفعول إفراغ وتنفيس للحزن عن صدر الرسول ﷺ ، ونقلة انتقل البيان القرآني بعدها لإنذار مَن يُرجى منهم الفلاح.

الأسلوب الثالث:"لعلهم يتفكرون" و"ولعلهم يتفكرون":(الأعراف: ١٧٦)، (الحشر:٢١) ، (النحل: ٤٤):

تكررت قوله:"لعلهم يتفكرون" مرتين فاصلة لأيتين من سورتين مختلفتين لوجود مناسبة معنوية وسياقية بينهما، اتحد المطلع، فافتتحت الأيتين بأداة الشرط "لو" وهي امتناعية في الأية الأولى دلت على أن المشيئة منتفية والرفع منتف كذلك، امتنع الجزاء لامتناع الشرط، وفي الثانية فرضت ما ليس بواقع واقعا مع إمكان الحصول لو وقع، فلو تحقق نزول القرآن على جبل لكان التصدع، وابتدأت فاصلة الأية الأولى بقوله:"فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" بأسلوب أمر الغرض منه: التوجيه والتعليم والتقويم والتعليل، فقد سبقت الأية بقصص كثير متنوع "فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ" (الأعراف:٧) وكتاب مفصّل "وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"(الأعراف:٥٢) وأيات مفصّلة "كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الأيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"(الأعراف:١٧٤) فالتفصيل غرضه الإرشاد والاهتداء والرحمة والرجوع إلى الله تعالى، وهو الغرض من قصّ القصص المختلف المتنوع الذي احتشدت السورة به من أولها وحطت رحالها في الأية محل الدراسة ليكون الجمع "القصص" راجعا إلى كل قصص السورة بأكملها، و"الأيات" المستفادة منها والمعتبَر بها في قوله:" ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِأَيَاتِنَا "، وفي الأية الثانية اختتمت الأية بقوله تعالى: " وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ" مع أن المثل المضروب في الأية الكريمة واحد ولكن الجمع يشير إلى الأمثال الأخرى المتقدم ذكرها في السورة الكريمة " كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا .. كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ... وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ.... لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ" (الحشر ١٦: ٢٠)، وأفردت الإشارة "ذلك" لأنها تعود على المثل المضروب للمكذبين دون ما سواه من القصص الذي قص أنباء المرسلين السابقين؛ ولذلك فُصل البيان عما قبله، واستؤنف بقوله:"فاقصص" فالفصل هنا من جهة المعنى، ومن ناحية اللفظ فلا يجوز عطف الجملة الخبرية على الإنشائية، فـ"الفاء" في قوله: "فاقصص" استئنافية تعليلية رابطة[١]، فالمثل

١- ينظر معاني الفاء. شرح المفصل ١٣/٥

المذكور سبب في قصّ القصص، أما إفراد الإشارة "تلك" مع إشارتها للجمع في قوله: "وتلك الأمثال" لأن المضروب لهم المثل والموجه لهم الخطاب (للناس) وهم ليسوا على قدم المساواة في التفكر والاعتبار والنظر، "إذا قيل: هو مثله في كذا فهو مساو له في جهة دون جهة"[(١)]، كما أن الغاية من ضرب الأمثال المتعددة واحدة هي التفكر، فنزلت الأمثال المتعددة على اختلافها منزلة المثل الواحد باعتبار ما يؤول إليه غرضها والمغزى منها، أما قوله: "لعلهم يتفكرون" خبر في معنى الإنشاء أي: تفكروا، ولكن لما كان الطلب ثقيل على النفس الإنسانية، وقليل من يلتزم به ويُقبل عليه عبر البيان القرآني بالخبر، تربية لها وتزكية وتعليم وفك لأغلال التقليد والتبعية والجمود، وكان الخبر أسلوب ترج وهو: ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله، ويدخل فيه ارتقاب المحبوب والطمع فيه[(٢)]، يقول الإمام الزركشي في معنى "لعل" و"عسى": "من الله تعالى واجبتان، وإن كانتا رجاء وطمعا في كلام المخلوقين؛ لأن الخلق هم الذين يعرض لهم الشكوك والظنون، والبارئ منزه عن ذلك"[(٣)]وهذا المعنى محال على الله ﷻ لأنه يقول للشيء كن فيكون، فيكون معناها هنا: التعليل يقول الشيخ "ابن يعيش":"...إلا أنها إذا وردت في التنزيل؛ كان اللفظ على ما يتعارفه الناس، والمعنى على الإيجاب بمعنى "كي"؛ لاستحالة الشك في أخبار القديم سبحانه"[(٤)]، لما سبق في علمه ﷻ أن التفكر لا يكون منهم في كل حال لغفلتهم وإعراضهم وانغماسهم في الشهوات عُللت لهم الغاية من ضرب الأمثال، فهم يرجون ما فيه سعادتهم وصلاحهم حتى وإن لم يعملوا بمقتضاه، وكان الفعل مضارعا "يتفكرون" لأن الله ﷻ يحب لهم تجدد الفكر ومزاولته آنا بعد آن مزاولة متجددة متعاقبة في جميع الأشياء والأحوال والأزمان وإثبات وجوده منهم دون نسبته إلى مفعول؛ ولذلك حذف للتعميم والإطلاق "لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى"[(٥)] .

وقد وردت الفاصلة (لعلهم يتفكرون) مقطوعة عما قبلها في سورتي "الأعراف" و"الحشر" على خلاف سورة "النحل" حيث وردت موصولة في قوله: " وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" الواو العاطفة تفيد ربط الجملة بما قبلها، والإيذان بحصول مضمونها توسطا بين الكمالين، فعلة إنزال الذكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيانه للناس، وعلة كونه منزلا لهم هي التفكر والتأمل فيما يقربهم إلى الله ﷻ ، فجعل التفكر في البيان المنزل مضاما لبيان الذكر وعلة أخرى من إنزاله .

<u>الأسلوب الرابع:</u> "كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ": (يونس: ٢٤)

الفاصلة التي تبتدأ باسم الإشارة "كذلك"من خلال تتبع السياق الذي ورد فيه من خلال

(١) – لسان العرب. مادة (مثل) .

(٢) – ينظر المطول ص ٢٢٦

(٣)– البرهان ص ١٠١٧

(٤) – شرح المفصل ٤/ ٥٧٠

(٥) – دلائل الإعجاز ص ١٥٥

الأيات التي حاول البحث كشف بعض أسرارها جاء في سياق التعليم والتوجيه والبسط والإشفاق والإجابة والإنعام على العباد بنعمة تبيين الصراط المستقيم، فيضرب الله ﷻ أمثالا كما في هذه الأية الكريمة، ويجيب عن تساؤلات كما في أيتي البقرة السابقتين؛ ولذلك كان البيان في هذا المقام تفصيلا "نفصل" أي: نفصل تفصيلا قاطعا بين الحق والباطل، ولأن المقام تعليم وتهذيب خوطبوا بما يستميلهم ويعزز إجابتهم بجعل الأيات من أجل قوم من قوامهم التفكير، طبعوا عليه حتى صار جزءا من ماهيتهم، وجمعت الأيات؛ لأن الصورة الممثل بها مركبة من عناصر شتى وهيئات تراكبت مع بعضها على هيئة مخصوصة لتصور سرعة زوال الحياة الدنيا، وكل عنصر من مكونات هذه الصورة أية، فناسب الختم بالجمع"أيات".

الأسلوب الخامس: قوله تعالى:"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ"، "إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"، وقد ورد التركيب الأول أربع مرات، والثاني مرتين، وبلاغة هذا التركيب تتمثل في مظاهر عدة منها:

أولا: إفراد "الأيات" وجمعها :

ختمت الأيات التي وردت في سور مختلفة بفواصل مؤتلفة متحدة المبنى، ولكن الاختلاف في إفراد "الأية" في موضع " إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً" وجمعها في آخر " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ" والجمع والإفراد يناسب ما ورد في هذه الأيات مناسبة معنوية، ففي سورة "الرعد" فُصّل مظاهر قدرة الله في خلق السماوات والأرض بأوجز بيان وأبلغه، فذُكرت دلائل قدرته تعالى في تسيير الكون وما يحويه من ظواهر طبعية مسخرة بأمره في مدى محدود جدا من الكلمات ولكنه يُفسر في مجلدات وأعوام، وهذه الظواهر المختلفة يناسبها جمع الأيات ائتلاف للفظ مع المعنى، وفي سورة "الروم" تعددت مظاهر القدرة وفُصل ذكرها في مظاهر متعددة كالإحياء والإماتة، والخلق من التراب، وجعل الزوج من النفس إلى الفاصلة محل الدراسة "يتفكرون" وتتابع ذكر الأيات وتعديد مظاهر القدرة في الأيات (٢٢ : ٢٥) من نفس السورة مفتتحة بقوله تعالى: "وَمِنْ أَيَاتِهِ" للإشارة إلى أن الأيات لم ينته ذكرها بل ورد منها في هذا المقام ما يناسب موضوع السورة وما هو أجلى في بيان القدرة والنعمة؛ ولذلك جُمعت "الأيات" في الفاصلة مناسبة للمعنى والمقام، وفي سورة "الزمر" تعددت مظاهر القدرة متمثلة في التوفي والإحياء، والإمساك والإرسال كل ليلة لكل الكائنات الحية مما نعلم وما لا نعلم، والاستطاعة لفعل واحد منها أية ومقدرة عجيبة، فكيف إذا تكررت كلها كل ليلة؟ فهي لذلك أيات، وفي سورة "الجاثية" تكرار اسم الموصول المبهم "ما" يضم في ثناياه مخلوقات عظيمة عديدة مما نعلم ومما لا نعلم سُخرت وذللت لخدمة الإنسان ونفعه، وهذا يتضمن إشارة إلى جهل الإنسان بنفسه وقدراته العظيمة التي عطلت بسبب الركون إلى الراحة والاطمئنان بالحياة الدنيا وتعطيل الأوامر الربانية "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا" (الروم:٤٢)، فتكرار "ما" مع جمع السماوات وذكر الأرض إيجاز قصر طوى ذكر مظاهر القدرة والسيطرة المتمثلة في

قوله تعالى:"أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ" (الأعراف:٥٤) وهذا مناسب لجمع الأيات.

أما إفراد "الأية" فورد في سورة "النحل" مرتين، أولها: في قوله:"هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء" فالماء المُنزل واحد، والاعتبار يحصل بإفراده وكونه سببا لمظاهر متنوعة من القدرة والمنفعة، ولا يحصل هنا بذكر العمليات الحيوية والآثار التي نتجت عنه، ثانيها في قوله تعالى:"يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ.." فأفردت الأية لتجلي القدرة في الناتج عن العمليات الحيوية المعقدة التي تقوم بها النحلة من وقت الإيحاء لها إلى أن تخرج العسل، فتكوين العسل الشفاء من مخرجات النحل هذا بديع عجيب، وهو الأية المعجزة الباهرة التي تستحق التدبر والتأمل والتفكر والنظر.

وأخرت "الأيات" رغم كونها مسندا إليه؛ لأن الخبر "في ذلك" هو الأهم، والأعنى بالبيان، وأفرد رغم إشارته إلى أيات وعجائب لا تنقضي أُبهم ذكرها في اسم الموصول "ما" مكررا، وعُممت في تكرار حرف الشمول "كل" مرتين أيضا في قوله:"ومن كل الثمرات" و"ثم كلي من كل الثمرات"، وتنوعت العجائب والمخلوقات مما نعلم ومما لا نعلم بإيراد صيغ الجمع، واسم الإشارة للبعيد "ذلك" من المبهمات لإشارته إلى جميع ما سبق ذكره حاضرا محسا يدرك بالبصر، أو غائبا معنويا مما يفقهه القلب[(١)] فما يفهم من الأيات دقيق خفي لا يظهر إلا بعد تكرر النظر والتفكر والتدبر، وفي إبهام المسند وتقديمه "في ذلك" تشويق إلى معرفة المسند إليه "لأيات".

ثانيا: القطع والاستئناف:

بُنيت الفواصل في هذه الأيات على القطع والاستئناف؛ لأن ما قبلها استدلالات على وجوه إله قادر مختار، والكلام فيها جواب عن أسئلة مقدرة، لِمَ لا يكون المؤثر في مدّ الأرض جاذبية الشمس والقمر لمياه البحار والمحيطات؟ ولِمَ لا يكون الماء هو المنبت للزروع؟ وهل تتميز النحلة بقدرتها على الشفاء؟ هل يكون من أنفسكم أي: من نطف الرجال ومن جنسكم خلق الزوج ؟ وهل الدهر هو السبب في الإحياء والإماتة؟ وهل تغيرات العالم مرتبطة بحركات الأفلاك ومسارات النجوم؟ فبطل فعل الطبيعة في التسخير والخلق والإنبات والإيحاء، فهذه الكائنات والظواهر الطبعية لا عقل لها ولا تدبير إلا أن يكون هناك عقل خفي ومدبر خفي هو الذي فعل ذلك، "ولا يحل الإشكال أن نسمي هذه القوة الخفية الطبيعة فإنا لا نفعل بذلك أكثر من أننا نهرب من لفظ إلى لفظ نهرب من لفظ الله إلى لفظ الطبيعة"[(٢)]، جحدا للأيات الواضحة رغم إحساسنا بصدقها، وغرور العقل الذي يطلب الدليل على كل شيء ولو كان واضحا، ولما كان الدليل لا يتم إلا بالجواب عن هذه الأسئلة لا جرم كان مجال التفكر والنظر والتأمل باقيا، فوجود هذه الكائنات وتسخيرها بكيفية معينة إقرار بوجود الله، كما أن حصول

((١)) – ينظر شرح المفصل ٣٥٢/٢

٢ – رأيت الله. مصطفى محمود، ص١١، دار المعارف.د.ت.

الحركات والإنبات وتسخير الأجرام السماوية بحركة مخصوصة واختلاف أنواع النبات الذي يسقى بماء واحد "حصول هذا التفاوت في الآثار، فعلمنا أن المؤثر قادر مختار ")[(١)] .

ثالثا: التوكيد : أكدت الفاصلة بحرفي التوكيد "إن" و"اللام" المزحلقة التي زحلقت إلى المسند إليه المتأخر؛ لأن تكوين الكون وفق نظام محكم، و تسيير أجرامه في مدارات مخصوصة، وتسخير السموات والأرض وما فيهما لنفع الإنسان متقرر في علم الناس، وهم مقرون به "وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ"(العنكبوت: ٦١)، ولكنهم لما لم يعملوا بمقتضى علمهم، وعطلوا فكرهم عن النظر والتدبر والتفكر، نزلوا منزلة من لم يقر به فاحتاجوا إلى التأكيد.

كما أن النظم التركيبي للأيات توكيد للمعاني التي قررتها، وتحقق ذلك في أسلوبين: الأول: تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله تعالى: "اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ" فالوفاة حقيقة مقطوع حصولها، أسندت إلى موجدها إسنادا ظاهرا لتأكيد اختصاصها به، فيتقرر ذلك في نفس المخاطب ويتأكد، ويتحقق، ويندفع الشك والتوهم، والثاني: أسلوب القصر المستفاد من تعريف الطرفين في قوله: "الله الذي سَخَّرَ لَكُم"، و"هو الذي أنزل"و "وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ" لقصر الفعل على الله ﷻ دون سواه قصرا حقيقيا، قصر صفة على موصوف.

رابعا: التكرار:

تكررت الفاصلة بلفظها ومعناها في سور مختلفة "لتعدد المتعلق")[(٢)]، خاطب الله ﷻ الناس وعدد عليهم أنواع نعمه التي خلقها وسخرها لهم، وأوغل بهذه الفاصلة عجبا من تخلف من لا يتأمل الأيات مع ظهورها، وتكرارها ليعتبر الناس ويتأثروا بالتكرار؛ لأن منهم من لا يتأثر بالمرة الواحدة.

[(١)] – البرهان في علوم القرآن ص ٧٠

[(٢)] – البرهان ص ٦٣٢

الخاتمة

يريد الله تعالى لعباده الخير؛ ولذلك حثهم على التفكر، ولم يجبرهم عليه أو يقسرهم بل رجاه منهم على سبيل التكرار والمتابعة والتجدد تشريفا لهم، والدعوة للتفكر ليست دعوة إلى الفكر في ذاته تعالى وصفاته؛ لأنه فوق إدراكهم، ولكن التفكر يكون في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السماوات والأرض وما بينهما ليكون ذلك مضعفا لمعرفته وخشيته.

وقد ذيلت أيات بعينها بالفاصلة "يتفكرون ، تتفكرون" على حسب اختلاف مقامها وسياقاتها في الذكر الحكيم، واختلف التركيب الذي انتهت به الأيات، فسورة البقرة السورة الوحيدة التي وردت فيها فاصلة التفكر متماثلة "كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" لما تضمنته السورة الكريمة من ذكر الحدود التي انفردت بها سوى سور القرآن الكريم الأخرى، ومن هذه الأحكام حكم الخمر والميسر، والحديث عن الإنفاق وهو ركن ركين في حياة البشر وصلاحهم وتآلفهم وقِوام حياتهم، فلما كان الحديث عن أحكام لها أثر دنيوي وعاقبة أُخْرَوية ناسب ذلك أن يكون البيان موضحا ومظهرا للأيات.

واستعمل في مقام سؤال الصحابة عن الخمر والميسر والإنفاق الرجاء "لعلكم تتفكرون" لأنهم قوم يُرجَى منهم التفكر ويحبه الله لهم؛ أما سورة "الأعراف" فقد أمر رسوله الكريم . صلى الله عليه وسلم . بتلاوة نبأ الذي ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ منها فغوى فذكر لفظ "القوم" في جانب المكذبين "ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا"؛ لأن الكذب من قومية هؤلاء القوم اشتهروا به وصار خصيصة تميزهم، وفي جانب المؤمنين لم يعبر البيان القرآني بـ"قوم" لكنه رجى لهم التفكر؛ لأن طبيعتهم تقبل النصح وعقولهم تقبل التفكر وتزاوله ويتجدد منهم بدليل إسلامهم لما تفكروا بعقولهم فلم يُفرَض عليهم، وفي سياق الكفار المعاندين في سورة "الأنعام" لم يذكر لفظ "القوم" لأنهم عميان لا يفهمون ولا يبصرون فيتفكرون، ويستحيل أن يوجد جماعة من الناس يميزهم عدم التفكر والتدبر والنظر؛ ولذلك يتهكم بهم المصطفى . صلى الله عليه وسلم . وينكر عليهم تعطيل عقولهم، فذيل الأية مستفهما "أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ" تعريض بهم لدخولهم في حيز من لا يعقل ولا يتفكر إشارة لاسم السورة، وفي مقام الدعوة إلى التفكر والاعتبار ومقابلة ذلك بالإنكار يحسن التوكيد "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" لتكرار الإشارة إلى موضع العبرة وموطن الاعتبار في المساقات كلها.

كثر إحالة الناس إلى التفكر والتدبر في السماوات والأرض وكانت الدعوة للتفكر والنظر بأسلوب الرجاء تارة، والتوكيد تارة، والتعريض تارة أخرى، فالبيان القرآني يقرر حقيقة خلق الله السموات والأرض ويعيد تكرار أية خلقها على مسامع الناس؛ لأنها محور حياة الإنسان، فالسماء تظله وفيها رزقه، والأرض مأواه وفيها معاشه، وهذا بالنظر إلى أضيق حدود وظيفة السماء والأرض بالنسبة للإنسان فلولاهما ما كان هناك حياة أصلا، وبعد تقرير هذه الحقيقة عُقب باسم الإشارة على سبيل المذهب الكلامي

الحجاجي الإقناعي" هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ"(لقمان:١١) استنكفتم وترفعتم عن النظر والتأمل واعتدتم استخدام نعمي ورتعتم فيها كما ترتع الماشية وأشركتم معي غيري فهذا خلقي وإن كنتم لا تقرون وتعترفون بقدرتي وحكمتي فأروني ماذا خلق الذين تدعون من دوني، فتنوعت الأساليب في الإشارة إلى الخلق ما بين إشارات عقلية تأمل ونظر وتفكر وأساليب نصية من مقارعة بالحجة وإتيان بالدليل المحسوس المشاهد لبيان عجز المشرك وبهتان الذي كفر.

ا بتداء الأمر بالنظر في خلق السماوات والأرض وما بينهما استدلال عقلي على وجود خالق قادر وهو مشاكل لذكر التفكر بعده ومناسب له، وكون الأمر بالتفكر بعد النظر في مفعولات الله . ﷻ . الحسية المشهودة من خلق السماوات والأرض ثم التدبر في أياته المسموعة المعقولة والتفكر فيها ترق وانتقال من الحس إلى العقل وإدراك لجلال الله وصفاته وصدق ما أخبرت به الرسل، وكل هذه الأيات والاستدلالات طريقها المذهب الكلامي والاستدلال على الواجد مما هو موجوه؛ ولذلك دُعي المنكرون إلى النظر في العالم العلوي ثم العالم السفلي، فالناظر فيهما يتبصر ويتذكر، ثم دعوا إلى التفكر في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وهو الماء الذي أنزل من السماء وأحيا الأرض، ثم أمروا بالنظر والسؤال عن مَن سبق مِن الأقوام وما أصابهم من حوادث ونكبات بسبب تكذيب الرسل وما تناقلته القرون وشهد به العيان قرنا بعد قرن.

من خلال تدبر الأيات الكريمة تبين أن التفكر هدفه الوصول إلى الحقيقة على اختلاف السياقات والمقامات، وحاصل التفكر يتمركز في قوله تعالى:"وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا"(آل عمران:١٩١)، ففي مقام السؤال وهو المقام الوحيد في سورة البقرة غرض التفكر ومغزاه الاقتناع بترك الخمر والميسر والكفّ عنهما كفًّا يولده العقل الوازع الناتج عن النظر في الشيء وتقليبه على جميع جهاته والوصول فيه إلى حكم نهائي يدُع النفس دعًّا، ويجبرها على الترك لما تحقق عندها من الإثم الكبير قدره الكثير مقداره فتأنف الطباع الصحيحة من اقتراف الإثم ومزاولته، وفي سورة يونس ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا وصورها بماء أنزله من السماء وكأن الناس لغفلتهم وتناسيهم هذه القدرة ذُكِّروا بها، فضرب لهم المثل ليهون شأن الحياة الدنيا ويقرر سرعة زوالها، أما في سورة النحل فجاء الكلام خبريا مقررا؛ لأنه حقائق ومقام إنعام، والمفكر يبحث عن حقيقة، ففيها ثلاث مقامات:

أولها: خطاب حسي يستنفر باقي الحواس لتقوم بعملها فقدمت لهم صورة الماء وإنبات الزرع والزيتون.

ثانيها: التفكر بما كان من أحوال الأمم السابقة وسؤال أهل الذكر ليتيقنوا.

ثالثها: أعاد عليهم الخطاب الحسي فأعاد عليهم أية الماء ولكن الماء هنا ليس للإنبات ولكن لإحياء الأرض، ثم ذكر إنعامه عليهم باللبن الخالص من بطون الأنعام من بين الفرث والدم،

وخروج الشراب الشفاء المختلف لألوانه من بطون النحل.

جاءت الفواصل التي ختمت بها أيات التفكر في الذكر الحكيم على خمسة أنواع: أولها:الفاصلة المبدوءة باسم الإشارة: "كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"، وثانيها: "كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" فالمخاطبون يستفتون تحريّا للحلال والحرام؛ فلذلك ختمت الأيات بالبيان، وفي مقام التمثيل لسرعة الحياة الدنيا وزوالها ختمت الأية بالتفصيل لغفلة الناس وظنهم أن الأجل بعيد، وفي المقام الأول جعل البيان علة للتفكر، فهو حاصل لا محالة لوجود سببه، أما في المقام الثاني فقد جعل التفصيل لقوم من عادتهم التفكر ومن قوام حياتهم؛ فالتمثيل لسرعة زوال الحياة الدنيا تذكير وحث على التفكير، وثالثها: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ"و"إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"، لأن الأيات الكونية متقرر في علم الناس أن الله هو الخالق لها والمسير أمرها، ولكنهم لما لم يعملوا بمقتضى علمهم، وعطلوا فكرهم نزلوا منزلة من لم يُقر به فاحتاجوا إلى التأكيد، ورابعها: "لعلهم يتفكرون" جاءت الفاصلة علة لمثل مضروب أو قصص أشير إليه لوجوب التفكر في مضمونهما، وخامسها: "أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ" وصل الجدل ذروته حتى أصبح المخاطب لا يكاد يفرق بين الشيء وضده، ولا يميز بين الحق والباطل؛ ولذلك ختمت الفاصلة بالاستفهام الإنكاري.

فهرس المصادر والمراجع

– القرآن العظيم.

– الإتقان في علوم القرآن . السيوطي، تح: د. محمد متولي منصور، ط١، دار التراث ١٤٣١هـ . ٢٠١٠م

– أثر الوقف على حروف المعاني والبدء بها في إثراء المعنى واتساعه. د.محمد محمد عبد العليم دسوقي، اليسر القاهرة.د.ت .

– أدب المقالة. زكي نجيب محمود، ط١م، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧م.

– أسباب النزول. النيسابوري، تح: عصام بن عبد المحسن، ط٢، ١٤١٢هـ . ١٩٩٢م دار الإصلاح.الدمام.

– أسرار البلاغة. عبد القاهر الجرجاني، تح:محمود شاكر، ط١، مطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٢هـ . ١٩٩١م.

– إعجاز القرآن. الباقلاني، تح: السيد صقر، دار المعارف.د.ت.

– آل حم الجاثية – الأحقاف دراسة في أسرار البيان. د.محمد أبو موسى، ط١، مكتبة وهبة ١٤٢٢هـ . ٢٠١١م.

– أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوي. ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر الشيرازي البيضاوي، تح: محمد صبحي ود.محمود الأطرش، ط١، دار الرشسد دمشق بيروت ودار الإيمان بيروت١٤٢١هـ . ٢٠٠٠م.

– البرهان في علوم القرآن. الزركشي، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث.القاهرة١٤٢٧هـ .٢٠٠٦م.

– البيان في روائع القرآن.د.تمام حسان، ط٢، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣ م.

– البيان والتبيين. الجاحظ. تح: عبد السلام هارون، ط١، مكتبة ابن سينا . القاهرة ٢٠١٠م.

– التحرير والتنوير. الطاهر ابن عاشور.دار سحنون.تونس.د.ت.

– التفكير فريضة إسلامية. عباس العقاد، مكتبة الأسرة ١٩٩٨ م.

– التكرار بلاغة. دإبراهيم الخولي، ط٢، دار الأدب الإسلامي١٤٢٥هـ . ٢٠٠٥م.

– الجواهر الحسان في تفسير القرءان.تفسير الثعالبي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت.د.ت.

–الخصائص. ابن جني، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية.د.ت.

– دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. تح: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٣هـ . ١٩٩٢م.

– رأيت الله. مصطفى محمود، دار المعارف.د.ت.

– الزمر –محمد وعلاقتهما بال حم دراسة في أسرار البيان.د.محمد أبو موسى، ط١، مكتبة وهبة١٤٣٣هـ . ٢٠١٢م

– شرح المفصل. الزمخشري، تقديم: د.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.

– صحيح البخاري.البخاري، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة.د.ت.

– طبقات الشافعية الكبرى. تاج الدين السبكي، تح: عبد الفتاح الحلو، ومحمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية.د.ت.

– العقل وفهم القرآن. الحارث بن أسد المحاسبي، تح:د.حسين القوتلي، ط١، دار الفكر ١٣٩١هـ . ١٩٧١م

– غرائب القرآن ورغائب الفرقان.النيسابوري، ضبطه: زكريا عميرات، ط١ ، دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

– الفروق اللغوية.أبو هلال العسكري. المكتبة التوفيقية.د.ت.

– فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال.ابن رشد، تح:د.محمد عمارة، ط٣، دار المعارف.د.ت.

– الكشاف.الزمخشري، تح:خليل مأمون شيحا، ط٣، دار المعرفة. بيروت ١٤٣٠هـ. ٢٠٠٩م.

– لسان العرب. ابن منظور.تح: عبدالله الكبير، ومحمد أحمد حسب، دار المعارف.د.ت.

– المثل السائر. ابن الأثير.تح: أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة، دار نهضة مصر.د.ت.

– المطول.سعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث.د.ت.

– معيار العلم. الغزالي، تح:د.سليمان دنيا، ط٣، دار المعارف ٢٠١٨م.

– المفردات .الراغب الأصفهاني.تح: عدنان داوودي، ط٤، دار القلم. دمشق. الدارالشامية١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

– منهاج البلغاء وسراج الأدباء. حازم القرطاجني، تح: د.محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب تونس ٢٠٠٨م.

– النشر في القراءات العشر. محمد بن محمد الدمشقي (ابن الجزري) تح: علي محمد الضباع.دار الكتب العلمية.د.ت.

– نصوص تفسير الحرالي المفقودة المستخرجة من الجزء الثاني من تفسير البقاعي ضمن تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، تح: د. محمادي بن عبد السلام الخياطي، ط١ ، ١٤١٨هـ . ١٩٩٧م.

– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي.د.ت. –

النكت في إعجاز القرآن.ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، تح: محمد خلف الله ود.محمد زغلول سلام، ط٥، دار المعارف ٢٠٠٨م.

– الواو ومواقعها في النظم القرآني .د. محمد الأمين الخضري، ط١، مكتبة وهبة ١٤٣٦هـ .

–الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز. عبدالله الحسين بن محمد الدامغاني، تح: محمد حسن أبو العزم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤٣١هـ. ٢٠١٠م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٥٤٧
مقدمة	٥٤٨
تمهيد	٥٥٠
المبحث الأول: خطاب التفكر في مقام السؤال.	٥٥٣
المبحث الثاني: خطاب التفكر في مقام المحاجاة.	٥٦٣
المبحث الثالث: خطاب التفكر في مقام ضرب الأمثال.	٥٦٦
المبحث الرابع: خطاب التفكر في مقام الإنعام	٥٧٤
المبحث الخامس: أسرار التنوع في فاصلة التفكر	٥٩١
الخاتمة	٥٩٨
فهرس المصادر والمراجع	٦٠١
فهرس الموضوعات	٦٠٤